العودة إلى القرآن

مجدي الهلالي

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الطبعة الثانية
١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة

رقم الإيداع : ٢٧١٣٤ / ٢٠٠٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N
٩٧٧-٦١٤٢-٩٧-٤

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ يَا كَرِيمُ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فلقد صدرت ـ بفضل الله ـ الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، وبعد مرور ما يقارب السبعة عشر عامًا على صدورها جرت في النهر مياه كثيرة، وأحداث عاتية متلاحقة، ومعها ازداد اليقين أكثر وأكثر، وهتفت الحقيقة بأنه لا مخرج لهذه الأمة من الغار المغلق عليها، والنفق المظلم الذي تسير فيه إلا بالعودة الحقيقية إلى القرآن بمفهوم العودة الصحيح، وإن لم نفعل فسيستمر الانحدار والضياع والهلكة.

لقد قال رسول الله ﷺ: «**أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَن لَّا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟**» قالوا: بَلَى.

قَالَ: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»[١].

معنى ذلك أن الضلال والهلكة في انتظار الأمة بقدر عدم تمسكها بالقرآن، فإذا

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦)، وابن حبان في الصحيح (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والطبراني (٢٢/ ١٨٨)، واللفظ له [بلى].

ما أسقطنا ذلك على واقعنا سندرك أن ما وصلنا إليه من ضياع غير مسبوق يدل على أن التمسك الصحيح بالقرآن صار في أضعف أحواله.

ومن الدروس المستفادة خلال الفترة الماضية أن هناك كثيرًا من المسلمين يرغب في العودة إلى القرآن ولكن بشروطه هو، أو بمعنى آخر: أن يستمر فيما هو عليه من ممارسات خاطئة أو مختلطة معه؛ لذلك كان من الضروري العمل على غلق كل الأبواب الجانبية في تعاملنا مع القرآن والاجتهاد في الإبقاء على باب واحد فقط يؤدي إلى الاستمساك التام به، انطلاقًا من كونه المصدر المتفرد الوحيد للهداية الكاملة والشفاء التام والتغيير الجذري.

لقد عوقب المسلمون حين تركوا الاستمساك الحقيقي بالقرآن بتخفيف قدره في قلوبهم وعلى ألسنتهم، فصار «قولًا خفيفًا» مع كونه بالأساس «قولًا ثقيلًا» وضُربت الحُجب على القلوب فحُرمت من نوره وروحه ومعجزته المؤثرة والمزلزلة، التي يشير القرآن إلى أثر من آثارها في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحشر: ٢١].

فإن لم نعزم عزمة صادقة على العودة الحقيقية للقرآن، ونغلق كل الأبواب الجانبية التي تمنعنا من الاستمساك الحقيقي به؛ فستستمر العقوبات على الفرد وعلى الأمة إلى أن يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، يأخذون أمر العودة إلى القرآن بقوة فيرفع الله الحُجب عن قلوبهم، ويؤيدهم بروح منه، فيتحول القرآن على ألسنتهم إلى قول ثقيل مزلزل يهدم كل باطل في عقولهم وقلوبهم، ويزكي نفوسهم فيصيرون من بعده عبادًا ربانيين صالحين مصلحين.. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

مقدمة الطبعة الأولى

الحمــد لله رب الأولين والآخرين، والصلاة والســلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فلقد أكرم الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة بخير رســالة أرســلها إلى البشــر، ضمّن فيها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كل ما يكفُل للإنسان العيش السعيد الآمن في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

قال تعالــى: ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾**﴾ [يونس: ٥٧].

هذه الرسالة عندما استمع إليها نفر من الجن أدركوا قيمتها العظيمة، وفهموا المقصد من نزولها، فســارعوا إلى قومهم ليخبروهم بمــا علموا.. فماذا قالوا لهم؟

﴿ **قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾**﴾ [الأحقاف: ٣٠-٣٢].

ولــم يكن هؤلاء النفر من الجن وحدهم هم الذيــن أدركوا قيمة القرآن؛ ففي تاريخنا أسطر من نور تقُصُّ علينا أن جيلًا كاملًا قد أحسن استقبال القرآن، وتعامل

معه على أنه منهج حياة، جاءهم من عند مالك الحياة ـ رحمة منه وفضلًا ـ ليُعينهم على السير فيها بما يُحقق لهم السعادة في دنياهم وأخراهم.

فهم الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ المقصد العظيم من نزول القرآن؛ فتعاملوا معه من هذا المنطلق، وأتوه من أوله، فأعطوه عقولهم وقلوبهم وأوقاتهم، فأحسن القرآن وفادتهم، وأكرمهم بكرمه البالغ، وأعاد صياغتهم من جديد، فصاروا أُناسًا آخرين، لم تشهد البشرية لهم نظيرًا، فدانت لهم الأرض، وسادوها في سنوات معدودات.

ومضى الزمان، وابتعد المسلمون شيئًا فشيئًا عن القرآن قائدًا وموجهًا، ووسيلة متفردة للتغيير، وانشغلوا عنه بأمور أخرى، ولم يُعطوه من أوقاتهم وأنفسهم ما أعطاه الجيل الأول له، ولم يأتوا أمره من أوله، فلم ينطلقوا في تعاملهم معه من المقصد الأسمى لنزوله.. فماذا كانت النتيجة؟ وماذا حصدت الأمة من وراء ذلك؟

لقد كانت النتيجة الطبيعية لعدم قيام القرآن بوظيفته المتفردة في الهداية والشفاء والتغيير أنَّ كل ما بناه الجيل الأول وحققه من مجد وعزٍّ تلاشى تدريجيًّا وأصبح أنقاضًا، وصرنا في ذيل الأمم لا قيمة لنا، ولا اعتبار لوجودنا، فأصبحنا أضيع من الأيتام على مائدة اللئام.

وتطبيقًا للقاعدة «من ثمارهم تعرفهم»، فلقد عرفنا حُسن تعامل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع القرآن من خلال الثمار العظيمة التي تحققت فيهم وفي أمتهم.

وتطبيقًا لنفس القاعدة على الواقع الحالي للمسلمين نجد أنه مع وجود بعض الانشغال بالقرآن حفظًا وتلاوة، إلا أن ثمار هذا الانشغال لم تظهر للوجود بصورة واضحة، وهذا يدل على أن هناك حلقة مفقودة في تعاملنا مع القرآن، وأن المطلوب معه أمر آخر.. أو بعبارة أخرى: تعديل جذري في طريقة تعاملنا معه.

إننا وباختصار شديد نـــحتاج إلى عودة حقيقية إلى القرآن، فندخل إلى دائرة تأثير معجزته؛ لتُعيد آياته وروحه المزلزلة تشـكيلنا من جديد، وتغيير ما بأنفســنا؛ ليُحقق الله وعده الذي لا يُخلــف، فيُغيِّرُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ما حاق بنا من بؤس وعذاب وضياع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ﴾ [الرعد: ١١].

وهذا الكتاب «**العودة إلى القرآن**» يتناول هذا الموضوع، فيبدأ في فصله الأول بالحديث عن الهدف الأسمى من نزول القرآن، وفي فصله الثاني يستعرض جوانب الهداية القرآنية، أما الفصل الثالث فيُجيب عن تسـاؤل البعــض عن كيفية التغيير القرآنــي، ويأتي الفصل الرابع بعنــوان «**القرآن بين الأوليــن والآخرين**» ليُقدم لنا النماذج التي تخرجت في مدرســة القرآن، ويستعرض كذلك تاريخ هجر القرآن، ووصول الأمــر إلى ما وصل إليــه الآن. والفصل الخامس بعنــوان «**حاجتنا إلى القرآن**»، ويتناول الفصل الســادس: «**عقبات في طريق العــودة**»، ثم يأتي الفصل الســابع مُبيِّنًا الوســائل العملية للعودة إلى القرآن تحت عنــوان « **كيف نعود إلى القرآن؟**»، ويختتم الكتاب بنداء ووصية.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ التيسير والسداد والقبول.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧].

  

الفصل الأول

لماذا أنزل اللّه القرآن؟

لماذا أنزل الله القرآن؟

خلق الله عَزَّوَجَلَّ المخلوقات من أرض وسماء، وجبال ودواب، وماء وهواء، وسائر المخلوقات قبل خلق الإنسان، وجعلها منقادة لعبادته، لا تعرف خالقًا سواه، ولا إلهًا غيره.. تُسبحه وتسجد له: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وخلق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الملائكة وهم من خواص خلقه، وجعلهم مقربين إليه يقومون بتنفيذ أوامره في تدبير أمور الكون.. وهم كسائر مخلوقاته في حالة دائمة من التسبيح والعبادة له سبحانه: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

خلق آدم:

ومع عبادة الكون كله لله وانقياده وتسبيحه الدائم له؛ فإنه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أراد أن يخلق مخلوقًا جديدًا يعبده باختياره بعد أن يُعطيه عقلًا لا يوجد مثله في سائر مخلوقاته، ويودع فيه من الملكات والمقومات ما يستطيع من خلالها أن يصل لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ لدرجة لم يصل إليها مخلوق آخر - بما في ذلك الملائكة - وبجانب هذا العقل جعل له سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نفسًا تُحب الشهوات، ولا تنظر إلى عواقب الأمور.. تُريد أن تأخذ حظها من كل عمل يقوم به هذا المخلوق.. تُحب الراحة، وتكره التكليف.

وبيـــن العقل والنفس يوجد القلـــب الذي يُعد بمثابة الملـــك: يُصدر الأوامر فيسمع له الجميع ويُطيع.. ففيه مركز القيادة والإرادة واتخاذ القرار، ولقد خلقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بإرادة حُرَّة، وأعطاه مزية حرية الاختيار، وطالبه بعبادته بالغيب في ظل هذه المعطيات.

أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الملائكة بهذا الأمر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فاستعظمت الملائكة أن يوجد مخلوق لا يعبد الله عبودية تامة كبقية الخلائق، وأن يوجـــد مكان فـــي الوجود يُعصى فيه الإلـــه: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم بيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للملائكة مواهب هذا المخلوق الجديد، وإمكانات عقله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

وطلب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الملائكة السجود لآدم تشريفًا وتكريمًا له.. فانصاعت الملائكة للأمر إلا إبليس رفض التنفيذ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤].

كيف لمخلوق يرى جلال الله عَزَّوَجَلَّ، وآثـــار قوته وقدرته وقهره أن يرفض له أمرًا؟!

لكنه الكبر والحسد، فعندما سأله المولى عَزَّوَجَلَّ عن سبب رفضه للسجود: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢ ﴾ [الأعراف: ١٢].

فكان العقاب الأليم: اللعن والطرد من رحمة الله والعقوبة بالحبس الأبدي في النار: ﴿ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ ﴾ [الأعراف: ١٨].

طلب إبليس:

عرف إبليس مصيره وبدلًا من المبادرة بالتوبة عما فعله؛ ازداد حقدًا وحسدًا وكراهية لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، وطلب من الله عَزَّوَجَلَّ أن يمهله في تنفيذ العقوبة طيلة مدة الحياة الدنيا لينتقم لنفسه من آدم وبنيه، ويسوقهم معه إلى النار: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١ ﴾ [ص: ٧٩-٨١].

وبعد أن تمت الموافقة على طلبه، أقسم اللعين أن يعمل جاهدًا طيلة هذه المهلة على إغواء بني آدم، وصدهم عن الصراط المستقيم بكل الطرق الممكنة: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

الهبوط إلى الأرض:

أسكن الله عَزَّوَجَلَّ آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الجنة وجعلها داره، وخلق له زوجته حواء، وأباح لهما الجنة كلها إلا شجرة واحدة: ﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ ﴾ [البقرة: ٣٥].

بدأ إبليس عمله مباشرة فهو لا يُريد أن يُهدر أي قدر من المهلة التي أخذها، واستهل ذلك بالوسوسة إلى آدم وزوجه بالأكل من الشجرة المحرمة، وادعى بأنها شجرة الخُلد والمُلك، وأقسم لهما بالله على ذلك:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١].

لم يكن آدم وزوجه يظنان أن هناك من يُقسم بالله كاذبًا، فأكلا من الشجرة لتنكشف لهما عوراتهما وينتصر عليهما إبليس.. حينئذٍ شعر آدم وزوجه بعِظم الجُرم الذي ارتكباه: ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٢، ٢٣].

ندم آدم وزوجه ندمًا شديدًا، وتابا توبة صادقة إلى الله، فقبِل سبحانه توبتهما: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٧].

وأخبرهما الله عَزَّوَجَلَّ بأنهما لكي يعودا إلى دارهما - الجنة - مرة أخرى فلا بد من نجاحهما في اختبار آخر.. فكانت الأرض هي مكان الاختبار الجديد ليهبطا عليها، وتبدأ منها رحلة العودة، ويهبط معهما إبليس ليستمر في عمله الذي طلب من أجله المهلة: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٤، ٢٥].

هبطوا جميعًا إلى الأرض ليبدأ الصراع بين الحق والباطل: ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [البقرة: ٣٨، ٣٩].

المشهد العظيم:

قدَّر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لآدم عددًا محددًا من الذرية يهبطون تباعًا إلى الأرض ليؤدوا الاختبار - اختبار العودة إلى الجنة - وقبل هبوطهم أخذ عليهم جميعًا العهد

والميثاق على عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولقد وافق الجميع على ذلك، وشهدوا بأنفسهم على هذا العهد: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

أخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الجميع بأنهم سيعودون إليه مرة أخرى ليسألهم عن العهد والميثاق والمهمة التي أنزلهم إلى الأرض من أجلها: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأعراف: ٢٩].

ولقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ هذا العهد الذي وافق عليه الجميع مركوزًا في داخلهم: فطرة تميل بهم إلى الحق، وإلى عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

بدأت ذرية آدم في الخروج إلى الأرض مجموعة بعد مجموعة لأداء الاختبار، وعندما تنتهي الواحدة وتنقضي مدة اختبار أفرادها على الأرض تُنزع أرواحها، وتذهب إلى القبور التي تُعد بمثابة ساحات انتظار، حتى ينتهي الجميع من أداء الامتحان.

يتوالى هبوط الناس إلى الأرض وخروجهم منها إلى أن يأتي آخر عدد قدَّره الله عَزَّوَجَلَّ، فيؤدي الاختبار ويكتمل امتحان الجميع، فينتهي دور الأرض كقاعة امتحان فتتزلزل، وتُخرِج من فيها ليبدأ يوم الحساب وإعلان النتائج: إما النجاح والعودة إلى الجنة، أو الرسوب والحبس في النار.

ماذا فعل الناس على الأرض؟

خرجت الأجيال إلى الأرض بفطرة سليمة حنيفية، مُهيأة لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ،

ولكن إبليس اللعين لم يكن ليتركهم ينجحون في امتحان العودة إلى الجنة.. وكيف يتركهم وقد طلب المهلة من الله عَزَّوَجَلَّ ليُضل الناس جميعًا ويسوقهم معه إلى النار؟! فهو يعتبر أن كل فرد ينجح في الفرار منه، والعودة إلى الجنة، دليل على أفضلية آدم عليه، وأحقيته بالسجود له ـ كما طلب الله منه ـ لذلك فهو يعمل جاهدًا على غواية الجميع، وألا يفلت أحد من قبضته، فتراه لا يترك فرصة للإضلال إلا ويستغلها.

مدخله الأساسي النفس البشرية وما فيها من جوانب ضعف كثيرة، وولع بالشهوات، وحب للراحة، فيدخل إلى القلب من خلالها ليستولي على إرادته فيصير أسيرًا له يأمره وينهاه كيفما شاء: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩].

وللأسف الشديد فقد اتبعه خلق كثير: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

اتبعوه بإرادتهم بعد أن زيَّن لهم الدنيا وزخرفها، وأنساهم ربهم وما طالبهم به: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩].

فانتهت حياة الكثيرين منهم نهاية مظلمة.. حينها انكشفت لهم الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان وانتهاء فترة الامتحان: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

حب الله لعباده:

ومع اتباع الغالبية العظمى من الناس لعدو الله إبليس، ونبذهم عبادة ربهم إلا أنه

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يشأ أن يعاقبهم على ذلك بحرمانهم مما حباهم به، فنعمه عليهم مستمرة، ورعايته لهم قائمة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

لا يتربص بهم، ولا يأخذهم حال معصيتهم: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يس: ٦٧].

بل يُمهلهم ويُعطيهم الفرصة تلو الفرصة ليعودوا إليه قبل فوات الأوان: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل: ٦١].

يصبر عليهم وهم يتمادون في العصيان والكفر.. يحلم بهم لعلهم يفيقون ويثوبون إلى رشدهم.. يُمسك السماوات أن تقع على الأرض والبحار أن تُغرقها غضبًا منها على العصاة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر: ٤١].

لم يتركنا ـ سبحانه ـ نواجه الشيطان بمفردنا، بل جعل لكل منا ملكًا يحضُّه على فعل الخير.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً بِابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلَكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فَإِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ، وَأَمَّا لَمَّةُ الْمَلَكِ فَإِيعَادٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾**»[1] [البقرة: ٢٦٨][2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٢١٩ برقم: ٢٩٨٨)، وقال حسن غريب، والنسائي في السنن الكبرى (١/ ٣٧ برقم: ١٠٩٨٥)

(٢) اللمَّة: النزول والقرب، والمراد ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك.. الهمة =

ومن صور رحمته وحبه لعباده أنه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد جعل باب التوبة مفتوحًا أمام الجميع، فلا يُغلقه أمام الإنسان ـ أي إنسان ـ إلا في اللحظات الأخيرة من حياته، وعند نزع الروح، وانتهاء فترة الامتحان.

الرسائل السماوية:

ومن دلائل حب الله لعباده كذلك: تلك الرسائل التي أرسلها لهم على مر الأزمان، تُذكِّرهم بما خُلِقوا من أجله، وأنهم سوف يعودون إليه شاءوا أم أبَوا ليُحاسبهم عما فعلوه.. يُرغِّبهم فيها بنعيم الجنة إن هم أطاعوه، ويُنذرهم بالنار ليخافوه ويستقيموا على أمره: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الزمر: ١٦].

واختار سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خير عباده من البشر ليقوموا بتبليغ رسالاته إلى الناس: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ ﴾ [النحل: ٣٦].

وأعطى كل رسول من رسله دليلًا على صدقه فيما جاء به من ربه لكيلا يشك الناس في أمره: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ﴾ [هود: ٦٣، ٦٤].

كيف تعامل الناس مع هذه الرسائل؟

مع كل رسالة يرسلها الله عَزَّوَجَلَّ لقوم من الأقوام، نجد أن القليل فقط هو الذي يستجيب لنداء الرسول ويُطيعونه فيما جاء به من ربه، ويمتنع الكثير عن طاعته استجابة منهم للشيطان.

= والخطرة تقع في القلب، أراد: إلمام الملك أو الشيطان به والقرب منه.. (النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤/ ٢٣٧).

يســتمر التكذيب فيمهلهم الله عَزَّوَجَلَّ لعلهم يســتجيبون لدعوتــه، ويُنقذون أنفسهم من ســوء المآل، ولكنهم ـ في الغالب ـ يظلُّون على عنادهم فيحق عليهم وعيد الله، فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر:

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وهكذا تتوالى الرســائل من الســماء إلى أهل الأرض أن أفيقــوا قبل فوات الأوان.. لا تتبعوا الشيطان: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الشورى: ٤٧].

إذن فجوهر الرســائل كلها هو هداية الناس إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، وإنقاذهم من طريق الشيطان.

قال تعالــى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائــدة: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة: ٤٦].

الرسالة الأخيرة:

كانت كل رسالة من الرسائل التي أرســلها الله عَزَّوَجَلَّ للبشر تُخاطب قومًا من الأقوام؛ حيث كان التقدم الحضاري والاتصال بين الأمم محدودًا، وبعد الرســالة التي أرســلها الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ مع نبيه عيســى ابن مريم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لبني إسرائيل ازداد انحراف الناس أكثر وأكثر، واحتاجت البشرية إلى رسالة تُخرجها من الظلمات إلى النور.. فكان القرآن.. ذلك الكتاب الذي أرســله الله عَزَّوَجَلَّ للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان، يبين لهم الطريق إليه، ويجيب عن تســاؤلاتهم مهما كانت مشاربهم وأحوالهم، ويواكب أي تطور يحدث لهم.

فالهدف الأساسـي من نـزول القرآن: هدايـة الناس إلى اللـه وإلى صراطه المستقيم، والعيش على الأرض بأمان، والعودة إلى الجنة بسلام.. قال تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤، ١٧٥].

رسـالة منطلقها الرحمة الإلهية بالناس لإخراجهم من الظلمات وإنقاذهم من النار: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [إبراهيم: ١].

أعظم رسالة:

ولأن القرآن هو رسـالة الله الأخيرة للبشرية؛ فلقد أرسله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مع خير رسله، وتولى بنفسـه حفظه من التبديل والتحريف ليستمر في أداء دوره حتى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩].

أنزله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بلغة عربية عذبة، سلسـة، بحيث يستطيع أي إنسان أن يفهم الحقائق الأساسـية لتلك الرسـالة مهما كان حظه من الثقافـة، وكذلك فإن اللغة العربية هي أكثر لغة يمكنها أن تحمل أقصى ما يمكن حمله من معاني القرآن: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف: ٢].

ولقد جعلها الله عَزَّوَجَلَّ رسالة موجزة ليسهل حملها وقراءتها وحفظها.. بعضها أو كلها.

وكونها رسالة موجزة فلا بد من قراءتها بتأنٍّ وتؤدة؛ حتى يتمكن السامع والقارئ من فهم المقصود منها: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ولأنها لا تُخاطب العقل فقط، بل الوجدان أيضًا؛ كان الأمر بترتيلها والتغني بها لتُيسِّر تفاعل القلب معها؛ ومن ثم بناء الإيمان فيه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤].

يسرها الله للقراءة، فلا تحتاج إلى أماكن محددة أو أزمنة خاصة لتُقرأ فيها: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

ولكي يتم دوام الاستفادة منها كان من الضروري أن يداوم المسلم على قراءتها يوميًّا، فكان التحفيز وشحذ الهمم لذلك برصد الجوائز لكل من يقرأ فيها حرفًا فيكون ذلك دافعًا لقراءتها؛ ومن ثَمَّ حدوث المقصود من نزولها.

ولقد جعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مواضيعها الأساسية مكررة في كثير من السور بأساليب مختلفة؛ لتتم بها التذكرة في أي موضع يلتقي فيه المسلم مع القرآن: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠].

ولأن المعنى هو المقصود بالأساس من القراءة كان الأمر بالإنصات لها، وتدبرها، وإعمال العقل في فهم المقصود من خطابها: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩].

كل هذا وغيره ليحدث المقصد العظيم من نزول القرآن؛ ألا وهو هداية الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ واستنقاذهم من طريق الشيطان: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

الفصل الثاني
جوانب الهداية في القرآن

جوانب الهداية في القرآن

أنــزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن لمقصــد عظيم، ألا هو هداية البشــر إليه وإلى طريقه المســتقيم، وقيادتهم إلى جنته ورضوانه، وإنقاذهم من إبليس ومن المصير الذي يقودهم إليه:

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فالقرآن حبل الله الممدود بين السماء والأرض، مَن تمسَّك به نجا من الهلاك كما قال ﷺ: «**أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟**» قالوا: بلى.

قال: «**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ، طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا، وَلَنْ تَهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا**»[١].

إنه المصباح الذي اجتبى به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذه الأمة، فلا ســبيل لهدايتها إلا به: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤].

مفهوم الهداية:

القــارئ للقرآن المتدبر لمعانيه يجد أن اللــه عَزَّوَجَلَّ يصفه في آيات عديدة بأنه

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦) وابن حبان في الصحيح (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والطبراني (٢٢/ ١٨٨) واللفظ له [بلى]. ومعنى سبب هنا: كل ما يتوصل به إلى شيء آخر.. والسبب الحبل وفي الحديث تشبيه تمثيلي.

هدى للناس.. فماذا تعني كلمة الهداية، وكيف تكون؟!

قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب: «**قُلْ اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بِالْهُدَى هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ**»(١).

فمعنى الهداية بصفة عامة: معرفة الطريق الصحيح الموصل للهدف الذي يسعى المرء لبلوغه.

فإن كان الأمر كذلك، فما هدف المسلم في الحياة؟ وكيف يبلغه؟!

أليس الهدف هو: رضا الله عَزَّوَجَلَّ ودخول جنته، كما في الدعاء: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رِضَاكَ وَالجَنَّةَ**»؟!

ولقد أخبرنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأنه ليس هناك إلا طريق واحد يؤدي إلى هذا الهدف، ألا وهو: الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

والطرق التي تُحيط بالصراط كثيرة، ويقف على رأس كل منها شيطان يدعو الناس إليه، كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ.

فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطًّا ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا سَبِيلُ اللهِ**»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «**هَذِهِ سُبُلٌ**» قال يزيد: مُتَفَرِّقَةٌ «**عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»، ثم قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ**﴾(٢) [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٩٠ برقم: ٢٧٢٥).

(٢) رواه الإمام أحمد (٧/ ٢٠٧ برقم: ٤١٤٢)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٩٥ برقم: ١١١٠٩) وابن حبان (١/ ١٨٠ برقم:٦).

هذا الطريق المستقيم ينبغي على المسلم أن يعرفه من بين الطرق الأخرى المحيطة به، وأن يسير فيه طيلة حياته حتى يلقى ربه.

فكيف له ذلك؟!

لم يشأ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن يترك الإنسان بدون دليل يدله على الصراط، ويهديه إليه.. فكان القرآن.

قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

ولقد بيّن ذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عنه النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ قال: «**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ، يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلا تَعُوجُوا، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الابْوَابِ قَالَ: وَيْحَكَ لا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، وَالصِّرَاطُ الإِسْلامُ، وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقَ: وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ**»[1].

كيفية الهداية القرآنية:

هداية القرآن للناس تتم من خلال كشفه وإنارته لكل الجوانب التي تتعلق بحركة الإنسان الخارجية، وكذلك كل ما يوجد بداخله من جوانب غامضة، وأسئلة حائرة، وتصورات خاطئة. فالقرآن يكشف هذه الجوانب، ويوجهها الوجهة

---

(١) صحيح، اخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٩/ ١٨١ برقم:١٧٦٣٤)، والحاكم (١/ ٧٣).

الصحيحة، وهو ما يعبر عنه «بسُبل السلام»، فهدفه الأساسي الوصول بمن يتبعه إلى بر الأمان في كل ما يتعلق به من أمور في الدنيا قبل الآخرة: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

فمن خلال القرآن يحدث الانسجام بين المرء وفطرته المجبولة على عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وبه يحدث السلام بينه وبين نفسه، وبينه وبين من حوله، وكذلك مع الكون المحيط به، ومع كل ما في يديه من أدوات مثل الأولاد والمال..

هذا على سبيل الإجمال.

أما على سبيل التفصيل، فعندما يوجد الإنسان في الدنيا، ويبدأ عقله في النمو والتمييز والإدراك، ويصل إلى سن البلوغ؛ فمن الطبيعي أن تتوارد على عقله تساؤلات كثيرة تتردد داخله من مثل هذا:

١- من الذي خلقني وخلق الناس جميعًا؟ ما اسمه؟ وكيف أتعرف عليه؟ وما الدليل الذي يؤكد على أنه الخالق، فهناك الكثير من الآلهة المزعومة؟! [**من هو الله؟**].

ولماذا خلقني هذا الإله، وميزني عن سائر ما أجد من مخلوقات؟ ما المطلوب مني؟! [**واجبات العبودية**].

٢- أسمع عن شخص اسمه محمد ﷺ، قد أرسله الله عَزَّوَجَلَّ إلى البشر، معه رسالة منه ـ سبحانه ـ فمن هو هذا الرسول؟ وما دوره؟ وما طبيعة الرسالة التي يحملها؟ [**من هو الرسول؟**].

٣- أشعر بنوازع ودوافع تدفعني إلى الفجور، والاستئثار بكل خير والتطلع لما عند الآخرين، وأشعر كذلك بصوت من داخلي يؤنبني على بعض ما أفكر فيه

وأقــوم به.. فمن أنــا؟ وما الذي يحــدث بداخلي؟ وكيف تهدأ أمــواج الخواطر والتطلعات، وأحلام اليقظة التي تضطرم في كياني؟ [**من هو الإنسان؟**].

٤- أشــعر في بعض الأحيان كأن هناك من يدفعني لفعل الشــر، ويعمل على إبعادي عن القيام بأعمال الخيــر، وهذا لا يأتي إلا من عدو.. فمن هو هذا العدو؟ وكيف أتقيه؟ [**من هو الشيطان؟**].

٥- أرى الناس تتســابق على جمع المال، وعلى التمتع بما في الدنيا من زينة، ومع ذلــك أراهم يموتون دون أن يأخذوا من دنياهم شــيئًا، فلمــاذا إذًا يتكالبون عليها؟!

وأرى كذلك أُناسًــا قد حُرموا الغنى، وآخرين حُرموا الصحة، وآخرين حُرموا الأولاد..

فلماذا لا يكون الجميع سواسية؟... وماذا بعد الموت؟ [**قصة الوجود**].

٦- أجد نفسي في كون فســيح مليء بالمخلوقات من نبات وحيوان وجماد، فما علاقتي به؟ وكيف أتعامل معه؟ وهل مــا أراه بعيني فقط هو الموجود في هذا الكون أم هناك مخلوقات لا أراها؟ فأنا لا أرى الهواء مثلًا لكنني أشــعر بوجوده!! [**التعرف على الكون**].

٧- ألاحظ أن الكون من حولي يســير وفق نظام دقيق: فالشــمس تُشرق في الصباح وتغرُب في المســاء، والفصول الأربعة تتوالى بدقــة متناهية، ودورة حياة الإنســان تسـير بنظام ثابت، وكذلك الحيوان والنبات.. فهناك إذن نظام وقوانين تحكم كل شــيء، فما هي تلك القوانين؟ وكيف أعرفها لأســتفيد بها؟ [**القوانين الحاكمة للكون والحياة**].

٨- أجد نفســي وســط أبوين وأشــقاء وأقارب وجيران، ثــم زوجة وأولاد

وزملاء.. فما شـــكل العلاقة التي ينبغي أن أتعامل بهـــا مع هؤلاء؟! [**حقوق العباد بعضهم على بعض**].

٩- أجد الكثير من الناس حولي تائهين يســيرون في طرق متعددة، بعضهم لا يعتقد بأن هناك إلهًا للكون، والآخر يدَّعي أن إلهه فلان، وتتعدد المزاعم، ويُثيرون الشُّـــبهات حول الإله الحق.. فلماذا لا يتَّبع الناس الحـــق؟ وكيف ندعوهم إليه؟ [**لماذا لا يتبع الناس الحق؟**].

١٠- أســـمع عن أُناس جـــاءوا إلى الدنيا قبلي ثم خرجـــوا منها... فماذا كان حالهم؟ وماذا فعلوا من صواب لأقوم بـــه، ومن خطأ فأجتنبه؟ [**العبرة من قصص السابقين**].

مثل هذه الأسئلة وغيرها من المفترض أن تتردد في ذهن كل عاقل يبحث عن سر وجوده، وبالإجابة عنها يهتدي المرء إلى سُبل السلام، ويعيش في سكينة وطمأنينة.

ولأن القرآن كتاب هداية فقد أفرد للإجابة عن هذه الأســـئلة العشرة مساحات كبيرة، وكررها في مواضع متعددة؛ ليتم بهـــا دوام التذكر، وفي الصفحات القادمة سيتم بمشـــيئة الله وعونه وفضله عرض نماذج للإجابة عن هذه الأسئلة من خلال القرآن؛ ليســـتأنس بها الواحد منا عندما يبدأ عهـــده الجديد مع القرآن بالبحث عن جوانب الهداية فيه.

  

الجانب الأول للهداية القرآنية:
التعرَّف على الخالق (مَن هو الله؟)
وواجبنا تجاهه (واجبات العبودية)

التعرف على الخالق من أهم جوانب الهداية، بل إنه المفتاح الذي يفتح الباب للجوانب الأخرى. وإن كنَّا -نحن المسلمين- قد عرفنا من هو الإله الحق -رب العالمين- فإن هذه المعرفة العامة تحتاج إلى الكثير من التفاصيل لتترسخ مدلولاتها داخلنا، فينعكس ذلك على شكل العلاقة بيننا وبينه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فعلى سبيل المثال عندما يتعرف الواحد منّا على شخص ما معرفة عامة، فإن نظرته له ستكون نظرة عادية مثله مثل غيره لا تلفت انتباهه، فإذا ما اقترب منه وازدادت معلوماته عنه، وعن قدراته، وخبراته وشهاداته، أو المنصب الذي يتولاه، فإن هذا من شأنه أن يزيده احترامًا وهيبة وتقديرًا لهذا الشخص؛ مما سينعكس على طريقة تعامله معه، والتي بلا شك ستختلف كثيرًا عما كان من قبل.

المعرفة طريق الخشية والإجلال:

فعلى قدر معرفة الله عَزَّوَجَلَّ تكون الخشية منه، وعلى قدر الخشية تكون المراقبة، والمبادرة إلى الخيرات، وترك المنهيات كما في الدعاء: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ**»[1].

(١) رواه الترمذي (٥/ ٥٢٨ برقم: ٣٥٠٢). وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى =

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

فبينت تلك الآيات أن التفكر في خلق السماوات والأرض قاد هؤلاء الصالحين إلى المعرفة: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾، وأن المعرفة قادتهم إلى الخشية: ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾.

ونلمح ذلك المعنى في قوله تعالى على لسان نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهو يخاطب فرعون: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات: ١٩]، ففرعون لا يعرف الله عَزَّوَجَلَّ؛ لذلك لا يخشاه ولا يحسب له حسابًا، وموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يُريد أن يعرِّفه به حتى يخشاه فينتهي عما يفعله.

وكذلك فعل نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع قومه: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ ﴾ [نوح: ١٣-١٦].

وعندما سأل موسى ربَّه: يارب أي عبادك أخشى لك؟ قال: أعلمُهم بي[(١)].

كيف نعرف الله؟

الله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا بأنه: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وأنه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١].

وأنه: ﴿ لَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

فما السبيل إذن إلى معرفته؟!

نعم لا يعرف الله إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما قال رسول الله ﷺ: «لاَ أُحْصِي ثَنَاءً

= (٩/ ١٥٤ برقم: ١٠١٦١).

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص:٧٥ برقم: ٢٢٣).

عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[١].

ومع ذلك فقد أتاح لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جزءًا من المعلومات عنه بدرجة تتحملها عقولنا من خلال ما أخبرنا به من أسمائه وصفاته، التي أودع مظاهرها وآثارها في مخلوقاته، وبقدر التتبع لهذه الآثار وربطها بالأسماء والصفات تكون المعرفة.

فالقاعدة تقول: «من آثارهم تعرفونهم»، فعندما يصف الناس شخصًا ما بأنه محسن ـ مثلًا ـ فإن هذا الوصف لن يقع موقعه في النفس إلا إذا رأيت آثار إحسانه.. وكلما تتبعت تلك الآثار وشاهدتها بنفسك يزداد يقينك بصحة وصفه هذا الوصف.. ولله المثل الأعلى.

فالله عَزَّوَجَلَّ لا نستطيع أن نراه في الدنيا، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق هذا الكون كله وجعله يدل عليه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]. وأخبرنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن له أسماء وصفات أودع آثارها في كونه ومخلوقاته.

إذن فالطريقة السهلة لمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ: أن نتعرف على آثار أسمائه وصفاته: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. وعلى قدر التتبع والتفكر في هذه الصفات تزداد المعلومات عن الله عَزَّوَجَلَّ، فينعكس ذلك على القلب بزيادة مساحة جوانب العبودية فيه.

دور القرآن في معرفة الله:

من أهم سمات القرآن أنه كتاب تعريف بالله عَزَّوَجَلَّ، فأكبر مساحة فيه تتحدث عنه سبحانه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله.

أما الطريقة التي ينتهجها القرآن في تعريف الناس بربهم عن طريق أسمائه وصفاته فتتلخص في هذه النقاط:

١ - التعريف بالصفة.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢ برقم ٤٨٦).

٢- وصف الصفة.

٣- عرض آثار هذه الصفة.

٤- العبودية المستحقة لها، وكيفية القيام بها، مع بيان صور الانحراف عنها.

نماذج تطبيقية:

١- أخبرنا القرآن بأن الله واحد ـ أحد ـ (صفة الوحدانية):

وصف القرآن هذه الصفة بعدة أوصاف؛ منها أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا شريك له، لا إله إلا هو، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

من آثار تلك الصفة:

قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقوله: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ [لقمان: ١١].

ويرشدنا القرآن إلى العبودية الواجبة لهذه الصفة ألا هي توحيده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإخلاص العبادة له.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥].

ويحذرنا من الوقوع في الشرك بالله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١١٦].

ويبين لنا مظاهر الشرك بالله، وعاقبة المشركين في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨].

٢- الله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا بأنه: الوهاب ـ الرزاق ـ المنان ـ البر ـ المعطي ـ والتي

يجمعها صفة الإنعام:

* **وصف الصفة:** ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

* **مظاهر الصفة وآثارها في الكون والنفس:**

مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ [الملك: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١].

* **العبودية المطلوبة:** الشكر.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

صور الانحراف عن العبودية: الإعراض عن الشكر (الجحود ونكران النعم).

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل: ١١٢].

٣- الله عَزَّوَجَلَّ **أخبرنا بأنه: عزيز- قهار- قاهر- ويجمعها صفة العزة والقهر:**

وصف الصفة: ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ - ﴿ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾.

آثار الصفة: مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦].

وقوله تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ [الشورى:٤٩، ٥٠].

* **العبودية المطلوبة:** الاستسلام والانكسار لله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ

﴿مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

من صور الانحراف عن هذه العبودية:

مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾ [النحل: ٥٨].

٤ - الله عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه بأنه الملك:

وصف الصفة: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: ٢].

من آثار تلك الصفة: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾ [آل عمران: ٢٦].

العبودية المطلوبة: طاعة أوامره.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨].

❊ **من صور الانحراف عن هذه العبودية:** الفسوق والعصيان.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [المائدة: ٤٧].

  

الجانب الثاني:

الرسول والرسالة

من جوانب الهداية في القرآن التعريف برسولنا محمد ﷺ، وبالرسالة التي حملها إلى البشر.

قال تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

فرسولنا ﷺ بشر مثلنا، كلفه ربه بحمل رسالته وتبليغها للناس.. قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:١].

هذا التبليغ يشمل شرح الرسالة القرآنية وتفصيل المجمل منها: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤].

ولقد قام رسول الله ﷺ بهذ الدور خير قيام، فالناظر إلى سنته يجد أنها مبينة للقرآن ومفصلة لما أجمل فيه.. جاء في الحديث: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ**»(١).

ففي القرآن والسنة عصمة من الضلال كما قال ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ**

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢٨/ ٤١٠ برقم: ١٧١٧٤)، وأبو داود في السنن (٤/ ٢٠٠ برقم: ٤٦٠٤).

تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي»(١).

ولقد تعرض الرسول ﷺ لكثير من المضايقات، واتُّهم بالعديد من الاتهامات والافتراءات، فصبر على ذلك حتى نصـره ربه، ودخل الناس في دين الله أفواجًا: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

تربيته ﷺ على تمام العبودية:

وكمـا يُعرفنا القرآن برسـولنا ﷺ ودوره العظيم، فإنه كذلـك يُبين لنا كيفية تربيته ﷺ على تمام وكمال العبودية لربه.

مثل قولـه تعالـى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقوله تعالـى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣٠، ١٣١].

واجبنا نحوه ﷺ:

وفي القرآن تعريف بما هو مطلوب منَّا تجاه رسول الله ﷺ.

فمن ذلك: طاعته ﷺ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

---

(١) رواه الحاكـم (١/ ١٧١، ١٧٢ برقم: ٣١٨، ٣١٩) عن ابـن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما، واللفظ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن لوازم طاعته ﷺ السير في طريقه، واتباع سنته:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧].

وعلينا كذلك حبه، وتوقيره، والصلاة عليه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فالسعيد من جعل الرسول ﷺ قدوته:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

الرسالة القرآنية:

ومع التعريف برسول الله ﷺ ودوره، وواجبنا نحوه؛ يأتي التعريف بالقرآن ذاته ليُدرك الناس مدى أهميته:

فالقرآن كتاب هداية كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

يُخاطب العقول فيُقنعها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ [النساء: ١٧٤].

ويؤثر على المشاعر فيؤججها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس: ٥٧].

يزيد الإيمان: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ [الأنفال: ٢].

ويبني اليقين الصحيح: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ ﴾ [الحاقة: ٥١].

  

الجانب الثالث:

التعريف بالإنسان[١]

خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان وجعله مكونًا من عقل وقلب ونفس وجوارح.

العقل:

أما العقل: فلقد جعله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ محلًّا للعلم والمعرفة، به كرَّم الإنسان على سائر مخلوقاته، وأودع فيه من الأسباب والقدرات ما يُمكِّنه من الوصول إلى معرفته بدرجة لم يصل إليها مخلوق من قبل، وليس أدل على هذا من تلك الاختراعات التي وصل إليها العقل، كالحاسب الآلي ومركبات الفضاء...إلخ.

والأمر اللافت للانتباه أن الأبحاث الحديثة قد أثبتت أن الإنسان لا يستخدم إلا جزءًا يسيرًا من قدراته العقلية، فلا تزال في العقول إمكانات هائلة معطلة..

ولا شك أن أي عاقل لا يستخدم عقله ولا يستفيد مما حباه الله به قد أهان نفسه، وسفَّهها بحرمانها فائدة هذا العضو الشريف.

نعم، إن الناس يتفاوتون في قدرات عقولهم، ومع هذا التفاوت فإن الحد الأدنى عند كل عاقل كفيل بأن يُعينه على معرفة الله عَزَّوَجَلَّ.

من هنا نجد أن القرآن يُعلي من شأن العقل، فتراه يستحث قارئه على استخدامه،

---

(١) سيتم بمشيئة الله بسط القول في هذا الموضوع في الفصل الثالث: القرآن والتغيير.

فنجد الكثير من الآيات تنتهي بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

ولأجل أن يستخدم الإنسان عقله في الوظيفة التي خُلق لها نجد القرآن يدعوه إلى تحرير هذا العقل من أسر التقاليد والأعراف الخاطئة، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤]. فتحرير العقل واستخدامه فيما خُلق من أجله مع ضبطه بضوابط الشرع من أهم الوظائف التي يقوم بها القرآن، فمن خلال الفكر الصحيح يصل المرء إلى صحة النقل، فقضية الوحدانية على سبيل المثال خاطب فيها القرآن العقل، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ [الأحقاف: ٤].

فالقرآن إذن يُعرِّف الإنسان بقيمة عقله ويُعلي من شأنه، ويحترمه ويدعوه إلى استخدامه في التفكر، وفهم المقصود من الخطاب: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ: ٤٦].

والقرآن كذلك يعرض صورًا لأناس أهانوا عقولهم، وعطلوها، فأصبحوا شر الدواب: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

النفس:

من تعريفات النفس أنها مجموعة الشهوات والرغائب داخل الإنسان، ومن طبيعتها أنها تحب الراحة وتكره التكليف، وتعمل على الحصول على شهواتها وحظها في كل فعل يقوم به العبد.. لا تنظر إلى العواقب، كالطفل الذي يلح على

أبويه في الحصول على شيء قد يكون فيه حتفه، فهي كما وصفها القرآن: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

* شحيحة، تحب الاستئثار بكل خير: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

* لديها قابلية للفجور والطغيان إذا ما أُرخي لها العنان، ولديها كذلك القابلية للانكماش والحذر إذا خوفت: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧، ٨].

أما الهوى فهو ما تميل إليه النفس من شهوات ورغائب.

إذن فالنفس هي العقبة الكؤود بيننا وبين الله عَزَّوَجَلَّ، ولقد خلقها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذه الصفات ليختبر مدى صدق عبوديتنا له.. وهنا يأتي دور القرآن العظيم في تعريف الناس بأنفسهم ونقاط ضعفها وخطورتها، وما فيها من قابليات، ويُرشدهم إلى طريق تزكيتها، ومجاهدتها على القيام بطاعة الله بصدق وإخلاص.

والقرآن يدخل إلى أعماق النفس -أي نفس- حتى آخر نقطة فيها، فيواجهها، ويوجهها، وكأنه قد نزل من أجلها دون غيرها.

ولا يكتفي القرآن بذلك، بل يعرض نماذج للمؤمنين الذين زكُّوا أنفسهم وجاهدوها، ليتأسى بهم القارئ، ويعرض كذلك صورًا لأناس تركوا الزمام لأنفسهم وساروا وراء أهوائهم حتى أهلكتهم: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ٧-١٥].

القلب:

وفي القرآن تعريف بقلب الإنسان، وأنه الملك على سائر الأعضاء، وأن حياته

الحقيقية إنما تكون بالإيمان باللـــه عَزَّوَجَلَّ.. هذا القلب يمرض، ومرضه إنما يكون بسيطرة الهوى عليه.

والقـــرآن يُبين لقارئه صور الهوى التي تُمرض القلـــب، ويُبين له كذلك كيفية شفائه منها، ويُعدد له وسائل زيادة الإيمان، لتستقيم حياته وتقوى إرادته.

قال تعالـــى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

ولا يكتفي القرآن بذلك، بل يعرض نماذج للصالحين أصحاب القلوب الحية لنتأســـى بهم، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾

[الأنفال: ٢-٤].

ويعرض كذلك صورًا لأصحاب القلوب المريضة القاســـية لنتجنب مسببات تلك القسوة: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦].

  

الجانب الرابع:

التعريف بالشيطان

بعد أن رفض إبليس السجود لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ طرده الله من رحمته وحكم عليه بالحبس الأبدي في النار، فطلب إبليس مهلة قبل تنفيذ العقوبة.. هذه المهلة هي فترة وجود آدم وذريته على الأرض:

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [ص: ٧٩-٨١].

هبط إبليس إلى الأرض ليبدأ في العمل على إضلال البشر وسوقهم معه إلى النار، مستهدفًا كل فرد يخرج إلى الدنيا:

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٢].

اعرف عدوك:

فإبليس إذن هو عدونا الذي أخرج أبوينا من الجنة، ويعمل على حرماننا من العودة إليها، بل على مرافقته في النار.. أما الشياطين فهم ذريته وأعوانه: يأتمرون بأوامره، وينفذون مخططاته، وما من يوم تشرق شمسه إلا ولهذا العدو فخ جديد ينصبه، ومحاولة للصد عن سبيل الله يحاولها.

يدخل على كل عبد من مناطق ضعفه، فهذا يدخل عليه من باب حبه للنساء،

وهذا من باب حبه لجمع المال، وهذا مـــن باب الإكثار من الطعام، وهذا من باب سوء الظن، وهذا من باب البدعة، وهذا من باب ترك الفاضل وفعل المفضول.

المهم أنه لا يريد أن يخرج صفر اليدين في معركته مع العبد.

إنه أمر مُخيف أن نتعامل مع عدو يملؤه الحقد والحسد والكراهية نحونا، ولا يرضـــى بأقل من النار مصيرًا لنا.. يرانا ولا نـــراه.. نغفل عنه ولا يغفل عنا.. يدخل علينا من المداخل التي نُحبها.

فما العمل إذن؟! وما السبيل إلى محاربته وتوقِّيه؟

إنه القرآن الذي بين أيدينا، فهو دائم التحذير من خطورة الشـــيطان، وعداوته المتأصلة للبشـــر جميعًـــا: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٦].

ويُذكرنا دائمًا بماضيه مع البشر، وكيف استطاع أن يُضل الكثير منهم:

﴿ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس: ٦٠-٦٢].

ولا يكتفي القرآن بهذا كله، بل يُبين لقارئه أبوابه، ومداخله عليه، وكيف يحترز منها، مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقوله تعالـــى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

  

الجانب الخامس:

قصة الوجود ويوم الحساب

الكثير من الناس يدخل إلى الدنيا ثم يخرج منها وهو لا يدري لماذا وُجد فيها، بل إنه لا يُجهد نفسه في البحث عن إجابة عن هذا السؤال، فهو يسير مع غيره.. همُّه جمع المال، وتأمين احتياجاته من مطعم ومشرب وملبس ومسكن.

يتزوج كغيره، ويُنجب الأولاد ليزداد سعيه من أجل تأمين مستقبلهم المادي في الدنيا.

تكبر سنه شيئًا فشيئًا، وهو يظن أنه قد أدى دوره في الحياة، ثم يموت ليُفاجأ بالحقيقة: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [ق: ٢٢].

فما هي تلك الحقيقة التي يُفاجأ بها الغافلون عند الموت؟!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

إنها حقيقة الدنيا، وحقيقة المهمة والوظيفة التي خُلقنا من أجلها.

الدنيا دار امتحان:

إننا -معشر البشر- لم نهبط إلى الدنيا ونمض فيها ما نمضي من السنوات لنأكل أو لنشرب أو لنتزوج وتكون لنا ذرية.. بل لأمر عظيم أبت السماوات والأرض أن تحمله: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إنه اختبار عبادة الله عَزَّوَجَلَّ بالغيب في ظل تمتعنا بحرية الاختيار، ومع وجود النفس الراغبة في نيل الشهوات، وحب العاجلة.

وشاء الله عَزَّوَجَلَّ أن تكون الأرض هي مكان هذا الاختبار: ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧)** ﴾ [الكهف: ٧].

وحدد لنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما يريده من البشر من خلال منهج وأدوات، وجعل المنهج ميسرًا وسهلًا: تكاليف قليلة، أوامر ونواهٍ ضمَّنها كتابه، وشرحها رسوله ﷺ، أما الأدوات فهي ما يُعطيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعبده أو يمنعه عنه.. فيُعطي بعضهم أشياء مثل المال، والصحة، والمنصب،... ويمنعها عن آخرين.

والهدف من العطاء: الشكر، ومن المنع: الصبر.. فمن أعطي مالًا ولم يشكر الله عليه فقد رسب في هذا الاختبار، ومن حُرم الأولاد فصبر ورضي فقد نجح وحقق المطلوب منه.

فالعبد الصالح يستقبل العطاء، أي عطاء، مستشعرًا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ **هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ** ﴾ [النمل: ٤٠].

والآخر يستقبله وهو يردد: ﴿ **إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ** ﴾ [الزمر: ٤٩]، وهو لا يدري أنه اختبار: ﴿ **بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩)** ﴾ [الزمر: ٤٩].

ويُذكرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنه ليس لأحد أن يملك شيئًا من الدنيا، فكل عطاء مُسترد، وسنخرج منها كما دخلنا فيها، فالله عَزَّوَجَلَّ سيرث الأرض ومن عليها من ذهب وفضة و..إلخ، فما علينا إلا أن نردد: ﴿ **إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦)** ﴾ [البقرة: ١٥٦].

لماذا الاختلاف بين الناس؟!

فإذا ما تبين ذلك كانت الإجابة سهلة عن السؤال الذي يشغل بال الكثير، وهو:

لماذا الاختلاف بين البشـر في العطاء والمنـع، وأيهما أفضل: الغنى أم الفقر؟ من عنده أولاد أم من حُرم منهم؟!

الأفضل من ينجح في مادته.. فالغني الشاكر خير من الفقير غير الراضي وغير الصابر، ومن حُرم الأولاد فصبر خير ممن رُزق الأولاد ولم يشكر الله عليهم..

فالعبـرة بالكيفية التي نتعامل بها مع المنع والعطاء، ويتضح هذا جليًّا في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

أما الشـيطان فهو يدخل علينا من المداخل التي دخل بها على أبوينا: المُلك والخُلـد.. فيُزين لنا العطاء على أنه مُلك حقيقي، ويُبهرج الدنيا أمام أعيننا، فنحبها ونتشبث بها، ونتصارع عليها، ثم نُفاجأ بعد ذلك أننا لم نجنِ من ورائها إلا السراب: ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النساء: ١٢٠].

إنها القصة المكررة منذ القدم:

فـإن كان هذا هو المنهج وهذه هي الإجابة المطلوبة، فما هو زمن الامتحان؟ ومن الذي يتولى الرقابة عليه؟!

أخبرنـا الله عَزَّوَجَلَّ بأن زمن الامتحان يبدأ من وقـت البلوغ والتكليف وينتهي عند نزع الروح من الجسد، وأخبرنا كذلك بأن باب التوبة مفتوح طوال هذه الفترة، فلنا أن نمحو كل الإجابات الخاطئة، ونغيّرها بحسنات ما لم نغرغر..

أما تسجيل الإجابات والرقابة على الأرض فتتولاها أكثر من جهة، فالملائكة تُسجل كل أعمالنا: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق: ١٨].

وأجسـامنا شـهيدة علينا: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور: ٢٤].

والكـــون كلــه يراقبنــا: ﴿ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩].

وفوق هذا كله، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الشـــهيد –الرقيب– السميع– البصير – القريب – المحيط: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

فشِـــدة الرقابة وعدم معرفة نهاية وقت الاختبار يستلزم منا شدة اليقظة، ودوام محاسبة النفس، والحذر من الشيطان، وكثرة التوبة والإنابة إلى الله.

ويبقى السؤال: متى الحساب وإعلان النتيجة؟

يُخبرنا القرآن في عشرات الآيات بما سيحدث للأرض بعد انتهاء امتحان آخر مجموعة من البشر: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ (٣) وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ (٤) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٥) ﴾ [الانشقاق: ١–٥].

فـــالأرض بعد انتهاء دورها تُخرج كل من فيها من البشــر ثم تتحطم ليبدأ يوم الحساب في أرض المحشر.

الكل سيُحاسب: ﴿ يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) ﴾ [القيامة: ١٠–١٣].

جميعنا ســيأتي يوم القيامة، ولكن كل واحد بمفرده، دون حاشية أو أقارب أو معارف: ﴿ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا (٩٥) ﴾ [مريم: ٩٥].

وستخرج معنا صحائف أعمالنا وإجاباتنا عن كل شيء: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا (١٣) ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

إنه يوم عصيب: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المزمل: ١٧]، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

يتولى فيه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بنفسه الحساب مع كل فرد: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وبعد الحساب تُعلن النتائج وتُوزع الشهادات: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

فينطلق الناجون إلى الجنة ليتنعموا فيها بالملك والخلد: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان: ٢٠].

ويُساق الراسبون إلى النار حيث الحبس والعقوبة الأليمة: ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم: ٦].

القرآن وقصة الوجود:

ولقد أفاض القرآن في تذكيرنا بقصة الوجود، وأخبرنا بما سيحدث لنا، وصوّر يوم القيامة بمشاهده العظيمة، ووصف لنا الجنة والنار وصفًا دقيقًا.. كل ذلك ليزداد تشميرنا وتنافسنا للفوز بالجنة والنجاة من النار.

إن دوام تذكر يوم الحساب من شأنه أن يُغير حياة الناس، ويجعلهم دائمًا في خوف ووجل، ويُهوِّن في أعينهم الدنيا، فتخرج من قلوبهم ويتعاملون معها كما يُريد الله عَزَّوَجَلَّ، فيجعلون منها مزرعة للآخرة.

ستصبح تصوراتنا حول مفردات الدنيا من رزق وزوجة وأولاد ومستقبل.. معتدلة، فلن نتصارع من أجل جمع المال، وسنعمل على تأمين مستقبل الأولاد الحقيقي هناك في الجنة، وسنجعل شعارنا قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [القصص: ٧٧].

والملاحظ أن من أهم مداخل الشيطان على الناس إغفالهم عن يوم الحساب ليسهل عليه إضلالهم بعد ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص: ٢٦].

لذلك أعطى القرآن لقصة الوجود، ويوم الحساب، والوعد والوعيد مساحة كبيرة لتكون لنا عونًا على دوام تذكرنا، فلا نُفاجأ بالموت دون أن نستعد له، وذكر لنا كذلك نماذج للإجابات الصحيحة من المؤمنين على مرِّ العصور لتكون لنا مثالًا نحتذي به، ونحن نسير في الدنيا، ونتقلب في مواد امتحانها:

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا

صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٣-٧٧].

ومع هــذه النماذج الطيبة يعرض لنا القرآن كذلــك صورًا للإجابات الخاطئة لنتجنب تكرارها والقيام بمثلها.

منها قوله تعالــى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: ١٧-٢٧].

والأمر اللافت للانتباه أن القرآن كثيرًا ما يصف الدنيا بأوصاف منفِّرة، مع بيان حقيقتهــا، لتخرج من قلوب الناس ولا يتعلقــوا بها، فحب الدنيا رأس كل خطيئة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقولــه: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

  

الجانب السادس:

معرفة السنن والقوانين الحاكمة للكون والحياة

ما مِن ملِك أو رئيس لدولة إلا ويحكم شعبه من خلال قوانين تنظم حياتهم، وتُعرّفهم حقوقهم وواجباتهم.. والفرد الذي يريد العيش في سلام عليه أن يعرف هذه القوانين جيدًا حتى يقوم بواجباته ويُطالب بحقوقه..

هذا مع البشر، وفي حيّز ضيق، فكيف بمالك الملك.. رب الأرض والسماء؟! كيف بمن حرَّم الظلم على نفسه؟! وكيف بمن جعل قيام السماوات والأرض بالحق؟

قال تعالى: ﴿ **وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية: ٢٢].

فقيام السماوات والأرض بالحق يعني ضمن ما يعني: تسييرها بنظام لا يتغير، ولا يتبدل، وهو ما يُعرف بالسُّنن: ﴿ **فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا** ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر: ٤٣]. فالله عَزَّوَجَلَّ يُنظم الحياة على الأرض بقوانين تسري على الجميع.. هذه القوانين تنقسم إلى قسمين: مادية، ومعنوية.

القوانين المادية:

فالقوانين المادية تلك التي تنظم حركة المادة في الكون.. كتبديل الليل والنهار، والفصول الأربعة، وكحركة القمر الشهرية، والأطوار التي يمر بها الجنين في بطن أمه.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

ومنها أيضًا وظائف أعضاء الجسم؛ حيث الحركة المنضبطة للسوائل، والهرمونات، والأجهزة المختلفة كجهاز المناعة، والتنفس، والتمثيل الغذائي، والإخراج، والدورة الدموية.. كل هذه الأشياء تتحرك وفق نظام لا يتغير بتغير رغبة الناس وأمزجتهم: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

هذا بالنسبة للقوانين المادية التي لا يختلف على وجودها اثنان، بل لقد استطاع الكثير من الكفار أن يستفيدوا منها أكثر من المسلمين لسعيهم الدءوب لاكتشافها، والانتفاع بها؛ وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد جعل الأرض سواء للسائلين، فمن أحسن سعيه، واجتهد في اكتشاف قوانينها وصل إلى كنوزها التي أودعها ربها فيها: ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فصلت: ١٠].

القوانين المعنوية:

أما القوانين المعنوية فهي التي ينتج عنها سعادة الفرد أو شقاؤه، وهي كالمادية لا تتغير ولا تتبدل، وتنطبق على الأفراد كما تنطبق على الأمم، ومعرفتها من الأهمية بمكان لتحقيق السعادة للفرد، والريادة للأمة الإسلامية.

ونظرًا للدور الخطير الذي تقوم به هذه القوانين فلقد أكثر القرآن من ذكرها، وأعطى نماذج كثيرة من تطبيقاتها.

ومن هذه القوانين:

تبديل النعم وسلبها، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ومنها المحافظة على النعم: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقوانين النصر: ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧].

ونــزول المصائب بالنــاس: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠].

ومنها عقوبة الظلم: ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وقوانيــن التيســير: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الليل: ٥-٧].

وقوانين التعســير: ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [الليل: ٨-١٠].

وغيرها من القوانين التي تضمَّنها هذا الكتاب المبين: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

البداية من العبد:

الملاحظ في القوانين المعنوية أن هناك قاســمًا مشتركًا بينها، وهو أن البداية التي تســتدعيها تكون من الفرد.. فالهدى والضلال، والسعادة والشقاء، والتوفيق والخذلان، وانشــراح الصدر وضيقه، والنصــر والهزيمة.. كل هذه الأمور تُصيب العبد حين تكون منه بداية تســتدعيها، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يظلم أحدًا: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

فكرامة الله للعبد على قدر استقامته وتقواه: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

إنها قوانين تُطبق على الجميع؛ أفرادًا ومجتمعات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾ [النساء: ١٤٤].

فالآية تقول للمؤمنين: إنكم حين توالون الكافرين تستوجبون على أنفسكم تطبيق سنن الله فيكم.

من هنا يتضح لنا أن إدراك السنن والقوانين التي يحكم الله بها الحياة، وفهمها، وإسقاطها على الواقع الذي نحياه لا بديل عنه لكل من يريد العيش الآمن والسعيد لنفسه في الدنيا والآخرة، ولمن يريد كذلك العزة والرفعة لأمته.

القرآن دستور الحياة:

ولأن القرآن كتاب هداية فلقد أفاض في ذكر السنن والقوانين التي تحكم الحياة، وبخاصة الاجتماعية منها لتوقف سعادة الناس عليها. قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ولم يكتفِ القرآن بذلك، بل ضرب الكثير من الأمثلة التطبيقية لهذه القوانين ليزداد يقين الناس بها:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال: ٥٣، ٥٤].

ويوضح لنا القرآن كذلك أن السنن والقوانين تعمل حين يكتمل ما يستدعيها، وهذا أمر لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، فهو سبحانه لا يعجل بعجلة أحد: ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ

إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢ ﴾ [هود:٨١، ٨٢].

ومن أشـــكال الهداية القرآنية في هذا الجانب: تعريف الناس بكيفية استبدال القوانين، وإيقاف عملها: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ٩٨ ﴾ [يونس: ٩٨].

فقوم يونس عندما ســـارعوا بالتضرع إلى الله، والتوبة إليه، أوقف سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ العذاب الذي كان قد حاق بهم.

  

الجانب السابع:

التعرُّف على الكون المحيط

نحن لا نعيش في هذا الكون بمفردنا بل هناك عوالم أخرى كثيرة تشترك معنا في الوجود.. منها ما هو مشهود لنا، ومنها ما هو غائب عنا، والقرآن الكريم يعرفنا على هذه المخلوقات وعلى طبيعة العلاقة التي تربطها بنا، وكيف نتعامل معها.

فتخبرنا الآيات مثلًا بوجود الملائكة، وأن منها الحفظة، ومنها من يقومون بتسجيل أعمال العباد، ومنها الملائكة السيارة، وحملة العرش: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠، ١١].

ومما لا نراه أيضًا: عالم الجن، ويخبرنا القرآن بأنهم مكلفون مثلنا تمامًا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

كون مُسخَّر:

هذا بخصوص عالم الغيب، أما عالم الشهادة فنحن نرى الكثير من المخلوقات في عالمنا، فما سبب وجودها؟ وما وظيفتها؟

يُخبرنا القرآن بأن الله قد خلق جميع ما على الأرض من مخلوقات من أجلنا: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩].

وجعلها مُسخَّرة لنا، لا تمتنع عنَّا، ولا ترفض استخدامنا لها.. فالماء مسخر للإرواء والإطفاء وكمادة حياة، والنار للتدفئة والإضاءة والإحراق، والنبات

لإخراج الثمار، ولإشاعة روح البهجة في نفوسنا، ولنستظل به، والمعادن تستجيب لتعاملنا معها... الأنعام مسخرة لركوبها، وأكل لحمها، وشرب لبنها.. وكل ما في جسم الإنسان من عضلات، وأجهزة وغدد وعمليات حيوية مسخرة له كذلك.

الليل والنهار والشمس والقمر، وكل ما في الأرض يعمل من أجلنا.. كل ذلك لنتفرغ لأداء المهمة والوظيفة التي خلقنا من أجلها: ﴿ **ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾** ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

هذا الكون المسخر لنا أودع الله فيه الكثير من آثار أسمائه وصفاته، وجعلها تدل عليه عَزَّوَجَلَّ، ودعانا إلى السير في الأرض، والتأمل في مخلوقاته، واكتشاف أسرارها لتزداد معرفتنا به: ﴿ **إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾** ﴾ [الجاثية: ٣-٥].

كون ينتظر فتحنا، واكتشافنا له.. مئات الأنواع من الطيور التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ تبحث عمن يكتشف أسرارها ويتعرف على الله من خلالها.. الأشجار المختلفة، والكائنات العجيبة.. ما خلقها الله عبثًا ولا سدى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾** ﴾ [يوسف: ١٠٥].

والقرآن الحكيم يحثنا في مواضع كثيرة على النظر في آيات الله في الكون، والعمل على فهم الرسائل التي تحملها لنا: ﴿ **قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ** ﴾ [يونس: ١٠١].

الكون العابد:

ومع تسخير المخلوقات وما تحمله إلينا من رسائل؛ فإنها أيضًا تشترك معنا في العبودية لله عَزَّوَجَلَّ.. تعبده، وتسجد له: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى**

ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

الكل يُسبح لله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [الجمعة: ١].

وهو كون يغار على حرمات الله، ويغضب لانتهاكها: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩١].

هـذه العلائق المتعددة مع الكون لن نسـتطيع أن نُدرك معانيها، ولا أن نُحقق مدلولاتها إلا من خلال القرآن... ولعل ما يؤكد هذا الأمر قول الرسول ﷺ عندما نزل عليه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠]، قال: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ بِهَا»[١].

  

(١) رواه ابن حبان (٢/ ٣٨٦ برقم: ٦٢٠).

الجانب الثامن:

حقوق العباد بعضهم على بعض

المتأمل للمعاملات التي تجري بين الناس يجدها لا تخرج عن ثلاثة أقسام: عدل أو ظلم أو إحسان.

فالعدل: هو إعطاء كل صاحب حق حقه دون زيادة أو نقصان.

والظلم: هو حرمان ذي حق من حقه، والاحتفاظ بالامتيازات.

وأما الإحسان: فهو نقيض الظلم، ويعني الفضل والزيادة، بمعنى أنك تُعطي أحدًا أكثر من حقه عليك.

فعلى سبيل المثال:

دفع الظلم ورده عن صاحبه: عدل لا شيء فيه، أما العفو والصفح عن الظالم فإحسان يُثاب عليه فاعله.

قال تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣ ﴾ [الشورى: ٤٠-٤٣].

الشريعة رحمة كلها:

ولأن الشريعة الإسلامية التي شرعها الله لعباده رحمة كلها كما قال تعالى:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لذلك نجد القرآن كثيرًا ما يُحذر من الظلم وعاقبة الظالمين، ويعرض الصور المختلفة للظلم ليجتنبها الناس.

مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [النساء: ١٠].

ولا يكتفي القرآن بذلك، بل إنه كثيرًا ما يتحدث عن فضل الإحسان بصوره وأشكاله ليستثير المشاعر، ويولد الرغبة، ويقوي العزيمة.

فلقد أخبر سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في كتابه أنه يُحب المحسنين: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وأن رحمته سبحانه قريبة منهم: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ويُذكرنا بأن مردوده سيعود على صاحبه: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ ﴾ [الإسراء: ٧]، وأن معيته –سبحانه– للمحسنين: ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وجعل الإحسان طرفًا تنعقد به العروة الوثقى مع الطرف الآخر وهو الاستسلام التام لله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ ﴾ [لقمان: ٢٢].

من فوائد الإحسان:

فإن قال قائل: ولماذا جعل الله الإحسان بين الناس بهذه المنزلة؟!

مما لا شك فيه أن هناك فوائد كثيرة تعود على الفرد وعلى المجتمع إذا ما شاع الإحسان بين الناس.

فعلى مستوى الفرد؛ فالإحسان قادر -بإذن الله- على علاج شح النفس وأثرتها، والشُّح كما نعلم مفتاح كل شر، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وليس الشح مقصورًا على الشُح بالمال، ولكن له أوجه كثيرة، كالشح بالوقت والجهد والنصيحة.

أما على مستوى المجتمع: فبالإحسان يتحقق مفهوم الجسد الواحد والأمة الواحدة. فلو انشغل كلٌّ منّا بنفسه -فقط- ما تعلم متعلم، ولا سارع أحد في نجدة ملهوف أو خدمة محتاج، ولا ذهب مسلم إلى مريض ليعوده، أو جار ليزوره، أو لمتخاصمين ليصلح بينهما، وما اشتغل أحد بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، فيؤدي ذلك إلى تفشِّي الأمراض الاجتماعية في المجتمع وانهيار أركانه، فالإحسان إذن ضروري لتحقيق السعادة للفرد والمجتمع.

وصور الإحسان في القرآن كثيرة.. منها:

الإحسان إلى الوالدين وبخاصة عند بلوغهما الكبر واستغناء الابن عنهما: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣﴾ [الإسراء: ٢٣].

والإحسان إلى ذوي القربى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٩٠﴾ [النحل: ٩٠].

ومن الضروري أن يظلل الإحسان حياة الزوجين: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء: ١٩].

وفي كلام الناس مع بعضهم البعض: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٣].

بل وفي الجدال أيضًا إحسان: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويُرغِّب المولى عباده في القيام بواجب الدعوة إليه، فيُخبرهم بأنها أحسن الأقوال: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فصلت: ٣٣].

وليس الإحسان في القول فقط، بل في الخلق والمعاملات بين الناس أيضًا، قال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وأرشدنا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إلى أن الطريق السهل لإنهاء الخصومة هو الإحسان: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت: ٣٤].

والمتتبع لهذا الجانب في القرآن سيجد آيات كثيرة تبيِّن له كل ما يُحبه الله عَزَّوَجَلَّ، وما يُبغضه في علاقته بالناس بصفة عامة وبالمؤمنين بصفة خاصة.

  

الجانب التاسع:

فقه الدعوة إلى الله

الإســـلام هو دين الله الخاتم للبشـــرية جمعاء، والقرآن الكريم هو كتاب هذا الدين جاء مصدقًا لما ســـبقه من كتب، وناسخًا لشرائعها، ومهيمنًا عليها: ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ [المائدة: ٤٨].

هذا الكتاب المعجز أنزله الله عَزَّوَجَلَّ للنـــاس، وجعله ناطقًا بالحق: ﴿ **لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)** ﴾ [فصلت: ٤٢].

وكما أشرنا ســـابقًا فإن الهدف الأساســـي من نزوله هو هداية البشر إلى الله، وإلى صراطه المستقيم، واستنقاذهم من طريق الضلال، فمن بحث فيه عن الهدى وجده، ومن شـــك فيه فما عليه إلا أن يقرأ الكتب الســـابقة التي بين أيدي الناس؛ ليعرف الفارق الكبير بينها وبين القرآن، وليتأكد لديه أنه من عند الله.

فإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يؤمن كثير من الناس بالله وبدينه؟!

هذا سؤال يُجيب عنه القرآن في عدة مواضع، ويُبين لنا أن ابتعاد الناس عن الحق له سببان لا ثالث لهما: إما جهل بهذا الحق، وإما هوى في قلوبهم يمنعهم من الإذعان له، قال تعالى: ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ** ﴾ [القصص: ٥٠].

لذلـــك كانت الدعوة إلى الله واجبة لإنقاذ هـــؤلاء الذين يجهلون الله عَزَّوَجَلَّ، ولقد رفع الله عَزَّوَجَلَّ من شـــأنها وجعلها من أعظم ما يتقـــرب به العبد إليه: ﴿ **وَمَنْ**

أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣].

ولكن كيف يُشـخص الداعية حال من يدعوه؟ وهل هـو من الذين يجهلون الحق أو يجحدونه؟!

إنه أمر عسـير لا يستطيع أحد أن يصل إليه بيقين؛ لذلك جعل سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ دور الداعيـة، بـل الرسـول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ البـلاغ والإنـذار: ﴿ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فليس لأحد أن يُكره إنسـانًا على الدخول في الدين كما قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقـرة: ٢٥٦]، ولكن المطلوب أن يُبين له طريقي الحق والضلال: ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولقد خاطب الله عَزَّوَجَلَّ نبيـه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بألا يحزن على عدم إيمان هؤلاء المعرضين: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣].

فهم لا يُريدون الهداية: ﴿ فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ ﴾ [التغابن: ٦].

وعندما انشغل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بواحد من هؤلاء المعرضين عن الهداية، وترك آخر يسعى من أجلها عاتبه الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ ﴾ [عبس: ٥-١١].

لماذا يُثّيرون الشُبهات؟

عندما يتمكـن الهوى من القلب فإنه يعمل على إغلاق سـمع وبصر صاحبه تجاه الحق، بل يدفعه إلى إثارة الشبهات حوله، ليظهر صاحب الحق بمظهر العاجز المهزوم، وينتفش الباطل، ويجد أهل الأهواء لأنفسهم مبررًا لاستمرارهم على ما هو فيه.

وما من دعوة لله عَزَّوَجَلَّ قامت إلا وعمل أصحاب الأهواء على إثارة الشبهات حولها، تأمل معي ماذا قالوا عن رسول الله ﷺ: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٧-٩].

ثم تأمل ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لرسوله ﷺ، وكيف بين له دافعهم من وراء هذه الشبهات: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ ﴾ [الفرقان: ١٠، ١١].

صور الهدى:

بيَّن القرآن الصور المتعددة لتمكُّن الهوى من القلب... فالخوف على الرزق وعلى الحياة قد يُسيطران على الإنسان ويمنعانه من قبول الحق:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ﴾ [القصص: ٥٧].

والرغبة في التمتع بالشهوات والفجور دون ضابط ولا رقيب من صور الهوى كذلك:

﴿ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ ﴾ [القيامة: ٥، ٦]. ومن صوره أيضًا حُب العلو في الأرض: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

متى نرد على الشبهات؟

هناك شبهات يعرضها بعض المبطلين تحتاج إلى بيان شافٍ.. نعم هذا البيان لن يؤثر -غالبًا- في أهل الأهواء، لكن هناك قطاعًا عريضًا من الغافلين قد تؤثر فيه هذه الشبهات فيُعرض عن الحق؛ لذلك حرص القرآن على تفنيدها.

فدحض الشبهات له دور كبير في زيادة إيمان المؤمنين، وذهاب الشك عن المترددين.

ومن صور الشبهات التي يُرددها المُكذِّبون قديمًا وحديثًا أن الكون ليس له خالق، بل إن الطبيعة أوجدته، ومنها أن هناك أكثر من إله في الكون، وأن لله ولدًا وزوجة -تعالى سبحانه عن ذلك علوًّا كبيرًا- أو أن القرآن ليس من عند الله، وأن محمدًا ﷺ ليس برسول، أو أنه يستحيل أن يكون هناك بعث بعد الموت، ومنها كذلك أننا مُجبرون على ما نقوم به من أفعال أو..إلخ، والقرآن حين يرد على هؤلاء تجد رده قويًّا مُفحِمًا، يشرح صدور المؤمنين، ويُزيل الشك عن المترددين.

تأمل قوله عَزَّوَجَلَّ في أمر القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٣، ١٤].

وفي قضية البعث: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٨- ٨٣].

وفي مسألة إثبات عبودية البشر لله عَزَّوَجَلَّ وأنهم مقهورون بقضائه وقدره، في الأمور الكونية وليس في الأمور الشرعية، يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣-٨٧].

وفي القرآن مواضع كثيرة تُفند الشبهات، وتكشف الدوافع وراء إثارتها.

هذا الجانب عندما يتتبعه الواحد منا في تلاوته للقرآن فإن من شـــأنه أن يزيده إيمانًا ويقينًا وعزة بهذا الدين، ويُعلِّمه كذلك فقه الدعوة، وكيف يتعامل مع أصناف الناس، وكيف يستقبل شبهاتهم، ويُصبِّره على ما يلاقيه من تكذيبهم.

قال تعالى:

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فصلت: ٤٣].

﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٣].

  

الجانب العاشر:

العبرة من قصص السابقين

القرآن مليء بقصص السابقين من المؤمنين والكافرين، بل إن المساحة التي يُفردها لهذه القصص من أكبر المساحات فيه، وهذا يعني أول ما يعني أنه ينبغي علينا أن نوليها قدرًا كبيرًا من اهتمامنا:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف: ١١١].

فكل قصة ذُكرت في القرآن للصراع بين الحق والباطل بها عبر ودروس مستفادة من شأنها أن تُثبِّت قلوب المؤمنين، وتُهوِّن عليهم مصاعب الطريق، وتُشعرهم بأنهم حلقة مكررة من حلقات التاريخ البشري، وأن ما يحدث معهم ليس بدعًا: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود: ١٢٠].

كيف نستخلص العبرة؟

إن المتأمل في قصص السابقين يجد فيها تطبيقًا عمليًا لجوانب الهداية التسعة السابق ذكرها، فمن خلالها نرى آثارًا لأسماء الله وصفاته، كالقوي المنتقم في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ

﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

وصفات العزيز القهار مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وآثارا لصفة القدير، كقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم: ٨، ٩].

ومن خلالها نتعرف على الإنسان حين يطلق الزمام لنفسه ولا يُجاهدها أو يزكيها، مثل قوله تعالى: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ ﴾ [المائدة: ٣٠].

* ومن جوانب الاعتبار فيها البحث عن دور الشيطان وكيف أضل الكثير من الناس عبر التاريخ: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

* ونتذكر من خلالها قصة وجودنا، ولماذا أتينا إلى الدنيا وطبيعة الامتحان فيها، ففي قصة قارون نرى مثالًا للمرء المخدوع في ماله وسلطانه، وعندما نصحه الناصحون بأن هذا ابتلاء من الله وليس دليل كرامة قال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ ﴾ [القصص: ٧٨]... فماذا حدث له؟ ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [القصص: ٨١].

وفي قصة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نرى مثالًا للمؤمن الذي يتعامل تعاملًا صحيحًا مع كل ما يستقبله من عطاء الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠].

* ومن قصص السابقين يتأكد لدينا واجبات العبودية لله عَزَّوَجَلَّ؛ كالاستغفار، والتوكل، كمثل قوله تعالى: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله: ﴿ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ ﴾ [هود: ٥٦].

* وكذلك حقوق العباد بعضهم على بعض، كقوله تعالى: ﴿ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ (١٨١) وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ (١٨٢) ﴾ [الشعراء: ١٨١، ١٨٢].

* ونرى فيها القوانين والسنن الإلهية وهي تُطبق في الوقت المناسب الذي حدده الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ (٧٤) إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ (٧٥) يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ (٧٦) ﴾ [هود: ٧٤-٧٦].

* وفي قصص السابقين تطبيق عملي للسنن الاجتماعية التي يحكم الله بها الحياة... تأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ وهو يعرض لنا سنة من سننه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ (٥٣) ﴾ [الأنفال: ٥٣]، ثم يعطينا سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ نموذجًا من قصص السابقين كتطبيق عملي لهذه السنة في الآية التي تليها مباشرة: ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلّٞ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ (٥٤) ﴾ [الأنفال: ٥٤].

* ومن خلال تدبرها نكتشف أن الشبهات التي يُثيرها المكذبون متشابهة على مر العصور، مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ (٤٨) ﴾ [القصص: ٤٨].

* وفي قصص السابقين نستشعر بأن الكون يتفاعل معنا؛ فتبكي السماء والأرض على موت الصالحين، ولا تبكي على موت الظالمين: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩].

وكأننا نسمع النملة التي تتحدث مع أخواتها من النمل، فيسمعها نبي الله سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ونتجاوب مع الهدهد الذي اشتدت غيرته على دين الله عندما رأى قومًا يسجدون للشمس من دون الله.

هل جوانب الهداية عشرة فقط؟!

بعد انتهاء الحديث عن الجوانب العشرة للهداية الربانية يبقى سؤال يحتاج إلى إجابة، وهو: هل القرآن لا يحتوي إلا على هذه الجوانب العشرة التي ذُكرت؟ وهل من الممكن أن نُضيف إليها جوانب أخرى؟

نعم.. يُمكننا ذلك، فليس معنى ما قيل في الصفحات السابقة هو حصر الهداية في هذه الجوانب العشرة فقط، فمن وجد جانبًا أو أكثر يُمكن إضافته لما سبق فليفعل، والله المستعان.

  

الفصل الثالث

القرآن والتغيير

القرآن والتغيير

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٢،٣].

في هذه الآيات تحذير شديد للمؤمنين من مخالفة فعلهم لقولهم.

والمُشاهد لأحوالنا يجد أن الحال يختلف بدرجة ما عن المقال، فالكثير يتكلم وينصح والقليل من تتمثل فيه هذه الأقوال والنصائح، وفي الوقت ذاته هناك من يريد أن تكون أفعاله على مستوى أقواله لكنه لا يستطيع، فإن تكلف ذلك فترة من الزمن فسرعان ما يعود إلى سابق عهده.

وليس معنى هذا عدم مطابقة الفعل للقول بالكامل، وإنما المقصد هو وجود بعض السلوكيات الخاطئة التي تتنافى مع ما يُحبه الله ويرضاه.

أمثلة من الواقع:

نحن كثيرًا ما نتحدث عن الأولاد أنهم هبة من الله عَزَّوَجَلَّ، وليس بيد أحد من الناس اختيار نوع المولود، فإذا ما رُزق بعضنا بأنثى شعر بالضيق في صدره، فإذا ما تكررت ولادة الإناث ازداد ضيقه، والذي قد يدفعه إلى اتهام زوجته بأنها السبب في ذلك.

ومن صور التناقض بين القول والفعل أيضًا أننا نتكلم عن ضرورة المساواة بين الأبناء ويفعل بعضنا العكس.

ونتكلـــم كذلك عن ضرورة الإحســـان إلى الزوجة ومعاشـــرتها بالمعروف، ونتبارى في إلقاء الكلمات المُعبرة عن ذلك، وإذا بشـــكاوى الزوجات من ســـوء معاملة أزواجهن تصُمُّ الآذان.

نتحدث كثيرًا عن حقيقة الدنيا وأنها دار ارتحال وليســـت دار مقام، فلن يأخذ الإنسان -أي إنسان- شيئًا معه عند خروجه منها، ثم تجد منّا الحرص على التملك فيها، واللهفة على تحصيل أكبر قدر منها، وكأننا لن نُغادرها.

وغير ذلك من الأمثلة التي تكشف حجم الفجوة بين الواجب والواقع، والقول والسلوك.

أين القدوة؟

إذن فنحن أمام مشـــكلة السلوك الخاطئ، ونُدرة وجود الشخص القدوة الذي يقترب فعله من قوله، فضلًا عن مطابقته.

وقبل أن يشرد الذهن باحثًا عن حل لهذه المشكلة لا بد من معرفة أسبابها.

هذه الأسباب تدور في مجملها حول النقاط التالية:

١- الأفكار والمعتقدات الخاطئة التي ترسَّبت في عقل الفرد على مر السنين، وأصبحت من الثوابت التي تُشكل المنطلق الأول للسلوك.

٢- غياب الفهم الصحيح للإسلام الذي قد يؤدي إلى تضخيم فرع من الفروع على حساب أصل من الأصول مما يؤدي إلى خلل في القول والعمل معًا.

٣- ضعف الإيمان: فالإيمان هو الدافع للأعمال الصالحة وعلى قدر وجوده في القلب يكون حجم تلك الأعمال.

٤- عدم جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص: فقد يقوى داعي الإيمان في القلب وينتصر على داعـــي الهوى، ويقوم المرء بأداء ما يأمره به إيمانه، لكنه لا

يســتفيد من تلك الأعمال ولا يصل أثرها إلــى القلب، بل تتعرض للإحباط وعدم القبول من الله، وذلك بســبب أن النفس تُريد أن تأخذ حظها من تلك الأعمال، إما بدفع صاحبها للإعجاب والاغترار بها فينســب لنفســه أنها السبب في القيام بهذه الأعمــال، أو بدفعه للتحدث عنهــا أمام الناس على ســبيل المباهاة أو طلب علو المنزلة لديهم، وكلا الأمرين يؤديان -والعياذ بالله- إلى إحباط العمل.

المعجزة الكبرى:

إذن فلكي يُصبح الواحد منَّا ذا سلوك سَوِي، بفهم صحيح، وبصدق وإخلاص فلا بد أن يشمل التغيير عقله وقلبه ونفسه.

فإن كان الأمر كذلك فما هو المنهــج القادر على إحداث هذا التغيير في هذه المحاور الثلاثة، والذي ينبغي أن يكون ميسرًا أمام للجميع؟!

هنا يأتي دور القرآن العظيم، وتظهر قيمة معجزته الكبرى.

فالقــرآن لا يكتفي بتعريف الناس طريق الهدى، ولا يؤدي فقط دور المصباح الذي يشــع النور فيُبدد الظلمات، ويُنير طريق الســالكين إلــى الله، بل يقوم أيضًا بإخراج مَن يتمسك به من الظلمات إلى النور، وتغييره وإعادة تشكيله ليُصبح عبدًا مخلصًا لله في كل أموره وأحواله.

وهذا هو ســر معجزته الذي جعلهــا تتفوق على ســائر المعجزات الأخرى كمعجزة عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في إحياء الموتى، أو عصا موسى، أو ناقة صالح عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

قد يقول قائل: إن معجزة القرآن تكمن في أسلوبه، وبلاغته، وتحدِّيه للبشرية، وأنه صالح لكل زمان ومكان و..

نعم، هذا كله من أوجه إعجازه، ولكن يبقى ســر إعجــازه الأعظم في قدرته

-بإذن الله- على التغيير... تغيير أي إنســان، ومن أي حال يكون فيه، ليتحول من خلاله إلى إنســان آخر عالمًا بالله، عابدًا له في كل أموره وأحواله، حتى يتمثل فيه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

كيفية التغيير القرآني:

الوســائل التي يســتخدمها القرآن في تغيير الفرد، وإحــداث انقلاب جذري وشــامل في كيانه تُصب في محاور ثلاثة: العقل والقلب والنفس، وبقدر استخدام تلك الوسائل يكون التغيير، وفي ذلك تفصيل...

  

المحور الأول:

القرآن والعقل

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [النحل: ٧٨].

فالجنين يخرج من رحم أمه إلى الدنيا وهو لا يعلم شيئًا، ويبدأ تدريجيًّا في التعرف على العالم من حوله من خلال بيئته الصغيرة المحيطة به، ففيها يكتسب معارفه الأولية، وبمرور الأيام والسنين ومع اتساع دائرة حركته، وتنوع وسائل المعرفة التي يستقي منها معلوماته، تتكون لديه مجموعة من الثوابت والتصورات عن نفسه وعن كل ما يُحيط به ويتعامل معه؛ مثل نظرته للمال، الدراسة، الزواج، الصداقة، القوة، الموت، عالم الغيب.

ومما لا شك فيه أن هذه التصورات تختلف من شخص لآخر باختلاف المشارب والبيئات والمنابع التي يستقي منها الفرد معلوماته، وعلى أساسها يتكون فكر الإنسان وثوابته الخاصة.

هذا الفكر وهذه الثوابت تُشكل المنطلق الأساسي للسلوك الخارجي، فالإنسان -أي إنسان- يتحرك من خلال قناعاته الشخصية، وإذا ما أردت تغيير سلوك شخص ما فعليك أولًا أن تبدأ بتغيير قناعاته تجاه ما تُريد، أما إذا حاولت أن تقفز مباشرة إلى السلوك لتغيره دون أن تبدأ بالفكر، فلن تصل إلى النتيجة التي ترجوها، وإن أبدى أمامك استجابة سريعة لأوامرك -وبخاصة إذا ما كان لك عليه سلطان- فإن هذه الاستجابة تكون وقتية لا تستمر طويلًا.

لا بــد إذن من مخاطبة العقــل وتغيير الفكر والمعتقــد أولًا إذا ما أردنا تغيير السلوك.

تجارب عملية:

لبيان مدى تأثير القناعات والمعتقدات على ســلوك الإنســان يقول د. مالك بدري:

إن تأثير العوامل النفســية على الناحية الجســمية العضوية أمر بدهي يلاحظه الفرد فــي حياته اليومية، فهو يضطرب وتزداد ضربات قلبه عند تلقيه أخبارًا مفزعة أو مؤلمة، كما يحمر وجهه خجلًا وحياءً إن كان من أصحاب البشرة البيضاء.

ومن أهم الظواهر أيضًا تحسُّــن الحالة الصحية الجسمية لكثير من المرضى عند تناولهم لحبوب وكبسولات لا تحتوي على أي مادة فعَّالة لكنهم يعتقدون أنها عقاقير مفيدة. فقد لا تحتوي الكبســولات إلا على قليل من الســكر لكن الطبيب يؤكد للمرضى أنها ذات فائدة مضمونة.

وفي بعض الحالات يقوم الطبيب بحقن المرضى بمحلول الماء والملح بعد إيهامهم بأن هذه الحقن تحتوي على دواء ممتاز. وقد أثبتت الدراســات المتكررة بأن هؤلاء المرضى تتحسن حالتهم بدرجة واضحة تكاد في بعض الأحيان أن تصل إلى مستوى أولئك الذين تلقوا عقاقير حقيقية.

ولقد ظهرت مئات المؤلفات التي تدعو لتحســين صحة الإنســان الجسمية بتغيير أفكاره ومشــاعره وانفعالاته؛ ذلك لأن الذي يُشــكل فكر الإنسان ونشاطه المعرفي ليس هو الأحداث والمثيرات التي يتعرض لها في بيئته بشــكل مباشر، بل الذي يؤثر بالفعل هو تقييمه وتصوراته لهذه الأحداث والمثيرات[1].

(١) التفكر من المشاهدة للشهود، د. مالك بدري (ص: ٥١).

من هنا يتبين لنا أن الخطوة الأولى والأساسية لتغيير سلوك الإنسان هي تغيير فكره، وليس المقصد من تغيير الفكر تلك القناعة العابرة التي يُبديها العقل نتيجة قراءة أو مناقشة، فهذا قد يُحدث تغييرًا وقتيًّا ينتهي مفعوله بغياب الفكرة من العقل، ولكن إذا ما أردنا تغييرًا مستمرًّا فهذا أمر آخر يتطلب الحديث عن الشعور واللا شعور.

الشعور واللا شعور:

البعض منَّا يخاف من الظلام، فإذا ما ناقشته وجدته مقتنعًا بعدم وجود ما يُبرر خوفه، لكنه مع ذلك يستمر كما هو، والناس يتحدثون عن العدل والمساواة ولكن عند التطبيق يظهرون بالقيم العشائرية.

فما السبب في ذلك؟

السبب الرئيس لهذا التناقض بين القول والفعل أن العقل يستقبل المعلومات بجزئه المُدرك الواعي والذي يُسميه العلماء بالشعور.. هذه المعلومات لن تستطيع أن تكون دافعًا مستمرًّا للأعمال إلا إذا أصبحت علمًا راسخًا عند الإنسان، وانتقلت من منطقة الوعي والإدراك والشعور إلى منطقة اللاشعور، أو العقل الباطن، أو الأخفى على حد تعبير القرآن.

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ﴾ [طه: ٧].

فالسر -كما يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما أسرَّ ابن آدم في نفسه، وأخفى: ما أخفى ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعمله[1].

فاللا شعور، أو الأخفى هو منطقة العلم الراسخ اليقيني عند الإنسان، ومن خلاله تنطلق الأفعال بصورة تلقائية.

---

(١) تفسير الطبري (١٨/ ٢٧٢ ـ تحقيق شاكر).

ولقد ضرب القرآن مثالًا لأناس اعتقدوا أنهم مصلحون، ولكن سلوكهم يدل على عكس ذلك.. لماذا؟

لأنهم يُفسدون بطريقة تلقائية من اللا شعور.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة: ١١، ١٢][(١)].

والأمر الجدير بالانتباه كما يقول د. ميسرة طاهر: أن حوالي ٦٠٪ من سلوكنا اليومي ومن أفعالنا وأقوالنا مصدرها (الأخفى).

ويستطرد قائلًا: والأدلة على وجود الأخفى كثيرة، منها: المخاوف الشاذة، فكثيرًا ما نرى كبارًا وصغارًا يخافون مما لا ينبغي الخوف منه، كالأماكن المرتفعة، والقطط، فمثل هذه المخاوف لا يمكن أن نجد لها تفسيرًا على مستوى العقل الواعي.

ومنها كذلك فلتات اللسان وهي الكلمات التي نتفوَّه بها دون إرادة منَّا، وعند اكتشاف الفرد لمثل هذه الفلتات فغالبًا ما يعتذر عنها، ويقول: لم يكن قصدي أن أقول هذا.

ومن مظاهر وجوده كذلك ألعاب الأطفال، فمن يُراقب الأطفال يتأكد أنهم يخرجون من عقلهم الباطن كل ما يُضايقهم ليصبُّوه على ألعابهم سواء بالحركات أو بالكلمات[(٢)].

ومن الأوقات التي تُظهر الأخفى بصورة جلية: لحظات الاحتضار، حيث يكاد العقل المُدرك يتوقف ليُفسح المجال للأخفى ليُعبِّر عما بداخله، ويظهر هذا

(١) كن كابن آدم لجودت سعيد، بتصرف واختصار.

(٢) مجلة الإعجاز العلمي ـ العدد التاسع ـ صفر ١٤٢٢هـ - ص (٢٣، ٢٤) بتصرف.

بوضوح من خلال تباين اســتجابة المحتضرين لمن يُلقِّنهم الشــهادة، بل قد نجد الواحد منهم يُردد ما كان يغلب على اهتماماته في حياته.

جاء في كتاب الداء والدواء لابن القيــم: أنه قيل لرجل يحتضر: قل لا إله إلا الله، فجعل يهــذي بالغناء، ويقول ابن القيم: وأخبرني من حضر الشــحاذين عند موته فجعل يقول: لله، فِلْس لله، حتى قُضي.

وأخبرني بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده، وجعلوا يلقنونه (لا إله إلا الله) وهو يقول: هذه القطعة رخيصة، هذا مشْتَرٍ جيد، هذه كذا، حتى قُضي[١].

علاقة العقل المُدرِك بالأخفى (أو علاقة الشعور باللاشعور).

ما من معلومة ترســخ في اللاشعور إلا وتمر عليه من خلال الشعور أو العقل المُدرك.. مع العلم بأن كل فكرة نعتقد بصحتها حتى لو كانت خرافة فإن اللاشعور يقبلها دون مناقشة، أما رسوخها فيه لتُصبح يقينًا ومُنطلقًا للفعل التلقائي فهذا يحتاج إلى تكرار مرورها إليه من العقل المُدرِك... وإليك بعض الأمثلة التي تُوضح ذلك الأمر:

عندما نتعلم أحكام تلاوة القرآن فنحــن نتعلمها بالعقل المُدرِك، وبالمداومة على تطبيقها ترســخ هذه المعلومات في اللاشــعور، فيُطبِّــق المرء الأحكام دون تفكير فيها، وقد ينســى القارئ نَص الحكم التجويدي ومع ذلك يستمر في تطبيقه بصورة صحيحة.

والذي يتعلم قيادة الســيارة فإنه يتعلمها بالشــعور، ثم بالمداومة والممارسة ترسخ المعلومات في اللاشعور؛ مما يجعله يقود سيارته دون تفكير، وقل مثل هذا

(١) الداء والدواء لابن القيم (ص:١٧٠، ١٧١).

علـى الذي يتعلم الكتابة على الكمبيوتر والذي لا يسـتطيع في البداية كتابة حرف دون النظر إلى مكانه في لوحة الحروف، وشيئًا فشيئًا يستطيع الكتابة وهو ينظر إلى الآخرين.

إذن فتحول المعلومة من الشـعور إلى اللاشعور وثباتها فيه يحتاج إلى تكرار التفكير فيها، واسـترجاعها بين الحين والآخر وإلَّا تلاشـى وجودها شيئًا فشيئًا.. فكـم من أعمال ومهارات وأناشـيد وجُمَل مأثورة تعلمناها فـي الصِّغر ودخلت اللاشعور، ثم تلاشت منه أو كادت بسبب إهمالها وعدم استرجاعها كل فترة.

من هنا تأتي أهمية الممارسـة العملية المتكررة المعبرة عن الأفكار التي نُريد ترسـيخها في اللاشعور، ولعلنا نلمح هذا المعنى من تأكيد رسولنا ﷺ على أهمية المداومة على العمل -وإن قَلَّ- ليظل مدلوله راسخًا في اللاشعور.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسـول الله ﷺ: «**أحَبَّ العَمَلِ إلى اللهِ أدْوَمُهُ وإنْ قَلَّ**»[1].

القرآن واللاشعور:

مما سـبق يتبين أن من أسـباب عدم مطابقة الفعل للقول هو ما ترسـب لدى الإنسـان في عقله الباطن من أفكار ومعتقدات، والتي مـن الجائز أن يقتنع العقل المُدرك بعكسـها في لحظة من اللحظات، لكنه عند التطبيق يصدر منه سلوك مُعبر عن يقينه ومعتقداته الراسخة لديه.

فعلى سبيل المثال: لو ناقشت شـخصًا ما في قضية الرزق وأنه بيد الله عَزَّوَجَلَّ وقد ضَمِنه لنا، ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها، فستجد منه اقتناعًا تامًّا بذلك،

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٧١ برقم: ٢٨١٨).

ولكن عند التطبيـــق في معترك الحياة نجد أن الأمر يختلف حيث اللهفة والحرص على المال وكثرة التفكير في المستقبل والخوف من الفقر.

إذن فالخطوة الأولى في تغيير الســـلوك تبدأ بتغيير ما ترســـب لدينا من أفكار ومعتقدات خاطئة واستبدالها بأفكار ومعتقدات صحيحة.

هذا التغيير -كما مرَّ علينا- يستلزم ثلاثة أمور:

أولًا: اقتناع العقل المُدرِك بالأفكار الجديدة.

ثانيًا: تكرار مرور تلك الأفكار على العقل.

ثالثًا: ممارسة مقتضيات تلك الأفكار.

وهذا ما يفعله القرآن.

فالقرآن يُعيد تشـــكيل العقل من جديد، ويُصوِّب كل فكرة خاطئة لديه، ويبني فيه اليقين الصحيح لكل الأفكار والمعتقدات.

ولكن كيف يتم ذلك؟!

المتأمل في كتاب الله ســـيجد العديد من الوسائل التي يستخدمها في ترسيخ المفاهيم الصحيحة في اللاشعور، ومن أهم هذه الوسائل:

أولًا: الإقناع:

فالاقتناع بالفكـــرة هو الخطوة الأولى في طريق التغيير؛ حيث يســـمح العقل المُدرِك بمرورها بعد ذلك إلى اللاشعور ليصبح السلوك المعبر عنها يصدر بطريقة تلقائية.

من هنا يبرز احتـــرام القرآن للعقـــل ودوام مخاطبته وإقناعـــه بأهمية الفكرة المطروحة. والقارئ المُتدبر يجد المولى سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ـ وهو الكبير المتعال ـ يُخاطب

عقولنا، ويُبيِّن لنا الكثير من الأمور التي من شـأنها أن تُقنعنـا بما يُريده منَّا، بل إنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يدعونا في كتابه إلى اسـتخدام عقولنا والتفكر في كلامه، كقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، لنقتنع بما يحمله هذا الكلام من معانٍ وأفكار، فينتقل ذلك كله إلى اللاشـعور، ويترسخ فيه، لينطلق بعد ذلك السلوك المعبر عنها بصورة تلقائية.

فعلى سبيل المثال:

عندمـا يناقش القرآن قضية الوحدانية نلاحظ أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يشـأ أن يخبرنا -فقط- أنه إله هذا الكون، وأنه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد، بل ساق لنا الأدلة العقلية التي تبرهن لنا ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحقاف: ٤].

ويرُد القرآن على ادعاء النصارى بألوهية المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أو أمه، فيقول تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأَيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة: ٧٥].

ومن وسائل الإقناع التي يستخدمها القرآن: ضرب الأمثال، والتي تُعدُّ من أهم وسـائل تبسـيط المعلومة وربط الذهن بها، فالمعلم القديـر -كما يقول جودت سعيد- هو الذي يُقدم العلم للناس في أمثلة تجعلهم يقتربون من الموضوع أكثر(١).

قال تعالـى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الزمر: ٢٧].

---

(١) كن كابن آدم، (ص: ٨٥).

ومن أمثلة القرآن ذلك المثال الذي يُبيِّن خطورة الرياء، وعدم إخلاص العمل لله، وكيف سيكون حال صاحبه وهو يرى جهده وتعبه قد ضاع، في وقت هو أحوج ما يكون إليه:

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

ومن وسائل الإقناع كذلك:

استخدام الطريقة الاستنتاجية بطرح الأسئلة وترك الإجابة للعقل ليصل إلى المعنى المراد من ورائها، مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٨].

ثانيًا: تكرار الموضوعات:

نعم إن القناعة بالفكرة هي الخطوة الأولى في طريق التغيير؛ حيث تنتقل هذه الفكرة من العقل المُدرك إلى اللاشعور، ولكنها لن تستقر فيه إلا إذا حدث لها تكرار وتكرار.

ولعلنا جميعًا نلحظ ذلك؛ فعندما يحدث اقتناع بفكرة ما تجد الواحد منَّا كثيرًا ما تتولد لديه الرغبة في التعبير عن هذه القناعة بعمل من الأعمال، كمن قرأ أو سمع عن أهمية مساعدة المحتاجين ثم وجد أمامه محتاجًا، ففي الغالب أنه سيتصدق عليه ولو بالقليل، هذا الفعل قد لا يتكرر من صاحبه ثانية إلا إذا استمر التذكير بأهميته بين الفينة والأخرى.

مــن هنا تبرز قيمة التكرار كوسـيلة من وسـائل بناء اليقيـن الصحيح والتي يستخدمها القرآن، فالمتتبع للموضوعات المطروحة فيه يجدها متكررة ومتشابهة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الفرقان: ٥٠].

وصرَّفناه أي: كررناه بأساليب مختلفة.

ومن فوائد التكرار كذلك أنه يجعل القارئ في حالة دائمة من التذكر واليقظة.

والموضوعات التي تتكرر في القرآن كثيرة تَقِف على قِمَّتها تلك الموضوعات التي تتناول جوانب الهداية فيه، والتي تمَّ ذكرها في الفصل السابق.

فالتعرف إلى الله عَزَّوَجَلَّ يحتل مسـاحة ضخمة في القرآن، ولا تكاد تمر آية إلا وتجد فيها تعريفًا به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وبحقوقه علينا من عبادات قلبية -بالأسـاس- وقد تتضمن عبادات بدنية كذلك.

ومن الموضوعات التي تتكرر كثيرًا في القـرآن: قصة وجودنا على الأرض، وطبيعة الدنيا وأنها دار امتحان ينتهي بيوم عظيم للحسـاب، تُعرض فيها الأعمال، وتُعلـن النتائج؛ ليفوز الناجحون بالجنة التي أعدَّ الله لهم فيها شـتى أنواع النعيم، ويذهب الراسبون إلى النار فيذوقوا من ألوان العذاب.. أعاذنا الله منها.

ويُحذرنا القرآن دومًا من عداوة الشـيطان لنا وعمله الدائب لإضلالنا، ويُكرر علينا السنن والقوانين التي يحكم الله بها الحياة لنتذكرها ونستفيد بها.

ويُذكِّرنا القرآن كذلك بحقوق الناس بعضهم على بعض، ويُكرر علينا قصص السابقين لتتأكد لدينا المعاني والعِبر التي تحملها.

ثالثًا: رسم خريطة الإسلام:

ومن وسائل القرآن في إعادة تشكيل العقل: رسم خريطة الإسلام بنِسَبِها الصحيحة في ذهن قارئه، فالقرآن يُعطي لصاحبه تصورًا عامًّا لكل ما هو مطلوب منه، وعلاقته بكل شيء حوله، ولا يكتفي بذلك بل يضع كل أمر في حجمه المناسب له في شجرة الإسلام، فهو يرتب الأولويات، ويُكون الشخصية المعتدلة، المتوازنة، والتي تُعطي كل ذي حق حقه، فعلى سبيل المثال: نجد قضية الجهاد في سبيل الله قد أخذت مساحة معتبرة في القرآن بل نجدها تتقدم في الأولوية على عبادات أخرى عند تعارضها، كقوله تعالى:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾

[التوبة: ١٩، ٢٢].

فمن يترك عقله للقرآن ويدخل عليه بنفسية قريبة من نفسية الأمي المتلهف للمعرفة؛ سيجد بلا شك أن شخصيته قد تشكلت بصورة متوازنة، وستتكون لديه ملكة معرفة الأهم فالمهم لكل قضية يطرحها القرآن، وستوضع في ذهنه بالحجم الذي يتناسب مع اهتمام القرآن بها.

ولك أن تتخيل -أخي القارئ- ماذا يمكن أن يحدث لو اتجهت عقول الأمة بمثل نفسية الأمي إلى القرآن ليصبح هو المصدر الرئيس للتلقي؟ وكيف ستكون نسبة الاتفاق بين أفرادها؟!

مع الأخـــذ في الاعتبار أن المقصـــود من الدخول إلى القرآن بنفســـية الأمي المتلهف للمعرفة: أي أن ندخل إليه بدون أفكار مسبقة نبحث عن تأكيدها منه، بل العكس، ويؤكد ذلك قول عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... واتهموا عليه أراءكم، واستغشـــوا فيه أهواءكم..»[١].

على أن يصحب ذلك شـــغف لتحصيـــل العلم النافع، والهدايـــة، والإيمان، والشفاء.. يترجمه التلهف على لقائه، والانشغال به..

وخلاصة القول: أن القرآن يعيد تشكيل العقل، ويقوم ببناء اليقين الصحيح فيه من خلال مخاطبته بأساليب شتى؛ مما يؤدي إلى إقناعه بما يحمل من أفكار فتنتقل تلك الأفكار بســـهولة ويسر إلى منطقة اللاشعور، وتترسخ فيها من خلال تكرارها في السور والآيات لتشكل بعد ذلك نقطة بداية قوية لانطلاق السلوك المعبر عنها.

والقرآن لا يركز على قضايا بعينها، بل يرسم في الذهن خريطة شاملة وواضحة للإســـلام، ويُعطي كل جزء فيها اهتمامًا يناسب حجمه، فينشأ عن هذا كله تصحيح للمفاهيم الخاطئة وتغيير للثوابت الموروثـــة، لتحل محلها معاني القرآن وثوابته، وهذا من شأنه أن يُحدث وحدة التصور لدي أفراد الأمة.



(١) نهج البلاغة.

المحور الثاني:

القرآن والقلب

نعم إن الاقتناع العقلي هو المنطلق الأساسي للسلوك، ومع هذا تبقى هذه القناعة بحاجة إلى رضا قلبي به لتنطلق الجوارح بالأفعال المؤيدة لما في العقل من أفكار، فالعقل مهما كان وضعه إلا أنه في النهاية ما هو إلا جندي من جنود القلب، فالقلب هو الملك، وما من عمل تقوم به الجوارح إلا ويمر من خلال القلب ويأخذ موافقته ورضاه عليه، كما قال تعالى:

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٣].

فالسلوك يبدأ -كما توضح الآية- بإصغاء من القلب لصوت العقل ثم رضا بذلك لتكون النتيجة اقتراف الفعل.

وهذا ما يؤكده كذلك قوله تعالى: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم: ٤]، أي: أنصتت قلوبكما لصوت العقل وارتضته فكانت التوبة.

فالقناعة العقلية هي نقطة البداية التي لا بد أن يتبعها إصغاء من القلب ثم رضًا وتأييدًا ودفعًا لما تقتضيه هذه القناعة.

ولكن قد يقتنع العقل بقضية من القضايا لكن القلب لا يستطيع أن يتخذ القرار بتنفيذ مقتضى هذا الاقتناع وذلك لغلبة سلطان النفس وهواها وسيطرتها عليه، كما

قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ ﴾ [القصص: ٥٠].

فما هو الهوى؟ وما مدى علاقته بالقلب؟

القلب بين الإيمان والهوى:

من تعريفات القلب أنه مجمع المشاعر والعواطف داخل الإنسان من حب وكُرْه، وفرح وخوف ورجاء وغير ذلك.. والقلب كما نعلم هو الملك على سائر الأعضاء كما في الحديث: «.. **أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[١]... هذا القلب يتجاذبه طرفان: إيمان وهوى.

أما الإيمان: فهو تصديق القلب لقناعات العقل، أو بمعنى آخر: اتجاه المشاعر لما أقره العقل من أفكار، فالإيمان محله القلب كما قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴾ [الحجرات: ١٤].

والإيمان مشاعر كما في الحديث: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[٢].

وأما الهوى: فهو اتجاه المشاعر لما تميل إليه النفس من شهوات حسية كانت أو معنوية.

وعلى قدر قوة أحد الطرفين ـ الإيمان أو الهوى ـ تكون له الغلبة على إرادة القلب؛ ومن ثَمَّ يكون من نصيبه الأمر الصادر من القلب للجوارح.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٢٠ برقم: ٥٢) ومسلم (٣/ ١٢١٩ برقم: ١٥٩٩).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٢ برقم:١٦) ومسلم (١/ ٦٦ برقم: ٤٣).

ففي الحديث: «**لاَ يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ حِينَ يَشْرَبُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَقْتُلُ وَهْوَ مُؤْمِنٌ**»(١).

فلحظات الزنى أو السرقة أو القتل عكست انتصار الهوى على الإيمان، وقوة سيطرته على المشاعر.

الإيمان أولًا:

إذن فعندما نرى سلوكًا معوجًا من شخص ما: كمن بدأ يتهاون في أداء الصلاة، أو من يطلق بصره إلى المحرمات، فإن هذا يعكس قوة سلطان الهوى على مشاعره، ومن ثَمَّ فإن الطريقة الصحيحة لتقويمه ليست بإنكار أفعاله فقط، فهو يعلم جيدًا خطأ ما يفعل، وإنما تكون بالعمل على زيادة الإيمان في قلبه ليصبح هو الدافع للأعمال. وهذا ما نلحظه في قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢].

وفي الدعاء: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ**»(٢).

مرض القلب وصحته:

معنى مرض القلب: ضعف صحته، أو بعبارة أخرى: يمرض القلب عندما يسيطر الهوى على المشاعر، وبقدر هذه السيطرة يكون المرض، وعندما يسيطر الهوى على الجزء الأكبر في المشاعر يتمكن المرض من القلب وتنتفي عنه الصحة، ويصبح داعي الهوى هو الآمر الناهي المطاع، كما صور ذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿ **أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا** ﴿٤٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٤٣].

---

(١) رواه البخاري (٨/ ١٦٤ برقم: ٦٨٠٩) ومسلم (١/ ٧٧ برقم:٥٧).

(٢) رواه الترمذي (برقم: ٣٥٠٢). وقال: حسن غريب، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٥٤ برقم: ١٠١٦١).

وصور اتباع الهوى كثيرة، وتشمل كل ما تميل إليه النفس، ويجمعها قاعدة واحدة تنطلق منها وهي: حب الدنيا.

فمن تلك الصور: اتباع الشهوات: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩ ﴾ [مريم: ٥٩].

ومنها: طلب العلو في الأرض: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾ [النمل: ١٤].

ومنها كذلك: الخوف على الرزق والحياة: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ ﴾ [القصص: ٥٧].

وفي المقابل فإن عودة القلب إلى صحته تعني: تخلص مشاعره من سيطرة الهوى واتجاهها إلي الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»[1].

القلب الحي:

عندما تتحرر المشاعر كلها من سلطان الهوى وتتجه إلى الله عندئذٍ يصبح القلب حيًّا أبيض، يشع النور من جنباته، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض.. كما في الحديث: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ،**

(١) سنن أبي داود كتاب السنة- باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤/ ٢٢٠ برقم: ٤٦٨١). تحقيق محي الدين عبد الحميد رحمه الله.

وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[١].

فإن استغل الشيطان منه غفلة، تذكر الله فعاد إلى ما كان عليه: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١)** ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وخلاصة القول: أن التغيير المنشود يستلزم بالإضافة إلى إعادة تشكيل العقل: دخول الإيمان في القلب، وتقويته في مواجهة الهوى، والعمل الدائم على زيادته حتى يسيطر تمامًا على المشاعر ليعيد القلب إلى كامل صحته وحياته.

فإن كان هذا هو المطلوب للقلب ليحدث التغيير المنشود في السلوك، فكيف يمكن للقرآن أن يفعل ذلك؟!

القرآن ودوره في دخول الإيمان القلب:

دخول الإيمان والنور في القلب نعمة عظيمة من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى على لسان نبيه: ﴿ **قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)** ﴾ [سبأ: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي** ﴾ [المائدة: ١١١].

فالإيمان محض فضل من الله عَزَّوَجَلَّ يمنحه لمن يجد لديه رغبة فيه، كما في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»[٢].

ومما لا شك فيه أن القناعة العقلية هي مبدأ هذه الرغبة.. هذه القناعة لا بد لها أن تمتزج بميل قلبي وعاطفة تنتظر اللحظة المناسبة التي يمُنُّ الله فيها فتتوهج وينشرح صدر صاحبها للإيمان: ﴿ **فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ** ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٢٨ برقم:١٤٤)، مربادًا: أي يعلوه السواد، ومجخيًّا: أي مقلوبًا.

(٢) رواه مسلم كتاب البر والصلة: باب تحريم الظلم (٤/ ١٩٩٤برقم: ٢٥٧٧).

وهنا يأتي دور القرآن:

فمن أقبل على القرآن بنفسية الأمي المتلهف للمعرفة.. أقبل عليه وهو يبحث فيه عن الهدى وجده... لماذا؟!

لأنه سيجد فيه ردًّا شافيًا على ما يتردد في عقله من تساؤلات حول قضية الوحدانية، وقصة الوجود وما بعد الموت و.. إلخ.

لكن هذا كله لا يكفي -كما ذكرنا- فالقناعة العقلية إن لم يصاحبها إصغاء قلبي فستظل حبيسة العقل.

وهنا يأتي الدور الآخر للقرآن ألا وهو قدرته على إثارة المشاعر وتأجيجها، فالقرآن ليس تذكرة للعقول فقط، ولكنه أيضًا موعظة تثير المشاعر والعواطف:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس: ٥٧].

دور الموعظة:

الموعظة كالسياط تهز المشاعر، وتُهيئ القلب للإصغاء إلى صوت العقل فتنشأ الرغبة، ويزداد الشوق إلى الإيمان الذي يدخل نوره القلب في الوقت الذي يحدده الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

وهناك أمثلة كثيرة توضح قدرة القرآن -بإذن الله- على مخاطبة العقل وإثارة مشاعر القلب في الوقت ذاته، مما يُهيئ سامعه للهداية إن استمر في التعامل معه.

وإليك هذا المثال والذي نراه يتمثل في أحد صناديد الكفر -عتبة بن ربيعة- الذي ذهب إلى رسول الله ﷺ ليحاوره، ويعرض عليه ترك دعوته ودينه مقابل ما يُريد من مال أو جاه أو مُلك.

فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن انتظر حتى فرغ من كلامه، ثم تلا عليه صدر سورة فصلت حتى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ [فصلت: ١٣].

فلم يستطع عتبة أن يتحمل أكثر من ذلك فوضع يده على فيِّ رسول الله ﷺ وناشده بالرحم أن يسكت، وعاد إلى قومه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله من قبل، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم(١).

والمتأمل للآيات التي قرأها رسول الله ﷺ على عتبة يجدها تُخاطب العقل وتقنعه بوحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، وبملكه التام والمُطْلق لهذا الكون، وفي الوقت ذاته فإن الآيات تُثير المشاعر وتهز القلب وتخوفه، فينتج عن هذا امتزاج الفكر بالعاطفة، وهذا ما حدث لعتبة لكنه لم يستثمر الفرصة العظيمة التي سُنحت له، وغلبه كِبرُه.

القرآن يمزج الفكر بالعاطفة:

إليك مثال آخر يوضح طريقة القرآن في مزج القناعة العقلية بالعاطفة القلبية.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٤).

يقول تعالـى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣].

فهذا خطاب موجَّـه للعقل يحمل تحديًا معجزًا، ولكـن هذا وحده لا يكفي لحدوث التفاعل القلبي، بل لا بد من هزِّ القلب، وإثارة مشاعره، وهذا ما نجده في الآيات التالية للآية السـابقة: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤- ٢٥].

فامتزاج الفكر بالعاطفة هو طريقة القرآن الفريدة في تحويل وجهة القلب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، لينتظر القلب بعد ذلك فضل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في إدخال نور الإيمان إليه.

القرآن وزيادة الإيمان:

مـع دور القرآن العظيم في دخول الإيمان إلى القلـب فإنه يعمل كذلك على زيادته فيه، وذلك من خلال ثلاث وسائل:

الأولى: تلاوته الصحيحة تُزيد الإيمان:

كلما تلا المرء القرآن بتدبر وتعقل وترتيل، وتجاوبت مشاعر قلبه مع المعاني المستخرجة من تلاوته؛ ازداد إيمانه بتلك المعاني.

نعم في البداية قد يكون التجـاوب بطيئًا بين العقل والقلب، ولكن بالمداومة على القراءة مع يقظة الذهن سيزداد التجاوب والانفعال.. هذا التجاوب يعني زيادة الإيمان في القلب، وكلما اسـتثمر العبد لحظات التأثر بترديد الآية التي أثرت فيه: ازداد الإيمان في قلبه.

الثانية: الطاقة المتولدة من القرآن:

فاستثارة المشاعر تولد طاقة في نفس صاحبها، فإن استثمر تلك الطاقة بحُسن تصريفها في أعمال مصاحبة للقراءة كالدعاء أو السجود مثلًا: ازداد الإيمان أكثر وأكثر، وهذا ما نجده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

فعندما ترجم هؤلاء الصالحون شعورهم عند استماعهم للقرآن بالسجود والبكاء، انعكس ذلك على القلب بزيادة خشوعه وخضوعه لله عَزَّوَجَلَّ.

الوسيلة الثالثة: الدلالة على أوجه البر:

فالقرآن يدل على أعمال من شأنها أن تزيد إيمانه كالصلاة والصيام وقيام الليل والمسارعة في أعمال الخير.

فعلى سبيل المثال: نجد القرآن كثيرًا ما يستحث القارئ على الإنفاق في سبيل الله كقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم: ٣٨].

فالإيمان كما نعلم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فإذا ما قام العبد بهذه الأعمال فإن أثرها يعود على القلب مرة أخرى بزيادة مساحة الإيمان فيه.

القرآن وشفاء القلب:

السبب الرئيس لمرض القلب هو الهوى، وشفاؤه بالإيمان، وطريقة القرآن الفريدة في شفاء القلب هو «الإحلال» بمعنى استخدام قوة الإيمان ليحل محل الهوى

كما قال تعالى: ﴿ بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

ويضرب القرآن لنا مثـلًا لهذه الطريقة في العلاج: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد: ١٧].

القرآن والسير إلى الله:

كما أن لدى القرآن القدرة -بإذن الله- على تغيير سلوك صاحبه، وذلك بالعمل المستمر على زيادة الإيمان في قلبه وطرد الهوى منه، فإن لديه القدرة كذلك على السير به إلى الله والاقتراب الدائم منه حتى يصل العبد إلى درجة الصديقية، وهي الدرجة التي تلي الأنبياء في القرب من الله عَزَّوَجَلَّ وذلك بالأساس من خلال ما يعرف بـ«أعمال القلوب».

أعمال القلوب:

أعمال القلوب هي العبادات التي ينبغي أن يعيشها القلب بخاصة عند تعرضه لأحوال معينة. فالعبودية التي ينبغي أن يكون فيها القلب عند ورود النعم عليه: الامتنان والشكر لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿ فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والصبر هو عبودية القلب التي ينبغي أن تلازمه عند ورود المصائب أو الابتلاءات: ﴿ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾ [الحج: ٣٥].

والخشوع والخضوع والتواضع هي عبوديته عند ذكره لله عَزَّوَجَلَّ وتذكُّر عظمته وكبريائه مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [الأنفال: ٢].

وينبغي أن تتجلى هذه العبودية بوضوح في الصلاة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون:٢]

وعبودية التوكل على الله والاستعانة به ينبغي أن تصاحب القلب قبل القيام بأي عمل: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

والتقوى هي الحال التي ينبغي أن يكون عليها القلب بعد القيام بأي طاعة كثمرة لها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة: ١٨٣].

والرضا هو الحال الذي ينبغي أن يستقبل به القلب أقدار الله عَزَّوَجَلَّ المؤلمة...

وعلى قدر القيام بهذه الأعمال تكون عبوديته لربه؛ ومن ثَم قربه منه: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

فإن قال قائل ولكن كيف يمكننا القيام بهذه الأعمال القلبية، وما هو دور القرآن في ذلك؟!

قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد أن يتطرق الحديث حول منشأ هذه العبادات والفرق بين الحال والمقام.

الحال والمقام:

عندما تبلغ مسامع شخص ما أخبار سارة فإنه يعيش في حالة من الفرح والسرور، وعكس ذلك يكون عند تلقِّيه أخبارًا محزنة، هذه الحالة تزول بعد مدة ما من تعرضه للمؤثرات التي أثرت فيه، فإذا ما كان المؤثر شديدًا أو استمر في تعرضه له لفترة طويلة، فإن هذه الحالة الشعورية التي انتابته ستلازمه لفترة أطول من الزمن، وهذا ما يُسمَّى بالمقام، أي أنه أقام في هذه الحالة واستمر عليها.

فالحال إذن هو الحالة الشعورية الطارئة التي تنتاب الشخص عند تعرضه لمؤثر ما، ولا يصبح هذا الحال مقامًا إلا إذا عاش فيه ولازمه وأقام فيه، فقد تتلقى امرأة خبرًا بوفاة زوجها الذي هو في نفس الوقت شقيقًا لواحد من الناس وابن عم لواحد آخر.. بلا شك سيعيش الجميع في حالة من الحزن عند وقت تلقيهم النبأ، هذه الحالة ستزول عند ابن العم في وقت أقصر منه عند الأخ، أما الزوجة ففي الغالب أن حالة الحزن ستلازمها وقتًا طويلًا فتظل في مقام الحزن.

هذا من ناحية المشاعر، أما من ناحية السلوك فعلى قدر استثارة المشاعر تكون القوة الدافعة للعمل، فعلى قدر قوة المؤثر يكون العمل المُصاحب، وعلى قدر الاستمرار أو المقام في الحالة الشعورية المستثارة يكون الاستمرار في العمل المصاحب.

فالبكاء مثلًا عمل مصاحب لمشاعر الحزن عندما تتمكن من القلب، وسرعة استدعائه مرتبطة ببقاء هذه المشاعر في حالة من التوهُّج.

فإذا ما اتضح هذا الأمر فما علينا إلا أن نُسقطه على عبادات القلوب.

* فالشكر عبادة قلبية تنتج من استثارة مشاعر الحب والامتنان لله عَزَّوَجَلَّ، هذه الحالة الشعورية قد تكون طارئة فيعيش القلب شاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ في لحظات معدودة، وقد تستمر الحالة فترة طويلة فيستمر القلب في مقام الشكر؛ مما يدفعه إلى القيام بأعمال تُعبِّر عن هذه العبادة القلبية كسجود الشكر، وقيام الليل، وكثرة حمد الله عَزَّوَجَلَّ باللسان وذكر نعمه والتحدث عنها.

* والشعور بالاحتياج إلى الله عَزَّوَجَلَّ يستدعي عبودية الاستعانة به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وعلى قدر قوة الحالة الشعورية يكون العمل المُصاحب والذي يمثله دعاء الله عَزَّوَجَلَّ بإلحاح وصدق. واستمرار هذه العبودية وهذا العمل مرهون ببقاء تلك الحالة الشعورية.

* وعندما تهيج مشاعر الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ يعيش القلب في عبودية المراقبة والإخلاص والتي قد تصل إلى درجة الإحسان المذكور في حديث جبريل المشهور: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»(١).

* وعندما ينتاب الشخص شعور بالعجز والانكسار لله عَزَّوَجَلَّ، يعيش قلبه في عبودية الاستسلام والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ.

* وعندما تتأجج مشاعر الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ في القلب فإنه يعيش عبودية التقوى له سبحانه.

أما عبودية الإنابة والتوبة فيتجه إليها القلب عندما تستثار مشاعر الرغبة والطمع فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ.

هذه الأحوال المختلفة حين تستقبلها مشاعر العبد تجعل قلبه يتقلب في ألوان من العبودية لله عَزَّوَجَلَّ بقدر ما تمكث هذه الأحوال، وما من مؤمن بالله عَزَّوَجَلَّ إلا وعاش فيها ولو للحظات، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى سابق عهده من الغفلة بعد ذهاب المؤثر القوي.

الطريق إلى العبودية:

إذن لكي يصبح القلب في عبودية تامة ودائمة لله عَزَّوَجَلَّ يجب أن تكون مشاعره متوجهة إلى الله عَزَّوَجَلَّ وبصورة مستمرة؛ مما يجعل استثارة أي منها تتم بأدنى مؤثر، فيؤدي ذلك إلى توجه القلب إلى العبادة المناسبة للمشاعر المُثارة وبصورة تلقائية، فإن أصابته سرَّاء شكر، وإن أصابته ضراء صبر، وإن عزم على أمر توكل على الله، وكلما توجه القلب إلى العبودية المناسبة فإنه بذلك يسير إلى الله ويقترب منه. والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم: (١/ ٣٦ برقم: ٨).

ولكن كيف يمكننا أن نصل إلى هذه الحالة القلبية من خلال القرآن؟!

الطريق الذي يسلكه القرآن للوصول بصاحبه إلى هذه الحالة يدور حول قدرة القرآن على إنشاء الأحوال المختلفة التي يعيشها القلب وذلك بتنوع مؤثراته عليه، فتارة يُخوفه بذكر يوم الحساب وما فيه من أهوال، ويذكِّره بالنار وما تحتويه من ألوان العذاب، وبعاقبة المكذبين من الأمم السابقة.

وتارة يُرغِّبه بذكر الجنة وما فيها من ألوان النعيم، وتارة يستثير فيه مشاعر الحب والامتنان بكثرة ذكر النعم، وتارة يستثير مشاعر الاحتياج إلى الله بعرض جوانب الفقر إليه.

هذه الأحوال التي يُنشئها القرآن في القلب تتحول بمرور الأيام إلى مقامات ثابتة يعيشها القلب، وذلك من خلال كثرة استثارته للمشاعر المختلفة ودوام الضغط عليها حتى تتمكن الأحوال الطارئة من القلب وترسخ فيه فتصبح مقامات ثابتة.

أهمية الانشغال بالقرآن:

ولكي يصل المرء إلى هذه الحالة لا بد له من كثرة قراءة القرآن ودوام التفكر في الآيات.. لا بد أن تأخذ آيات القرآن وقتها الكافي مع القلب لتستقر الأحوال التي تثمرها فيه، فتنتج هذه الأحوال عبادات قلبية.. هذه العبادات ستدفع صاحبها للقيام بالأعمال الصالحة التي تعبر عنها. وهذا ما كان يفعله الصحابة رضوان الله عليهم -كما سيمر علينا بمشيئة الله في الفصل القادم.

تأمل معي حالهم وقد امتلأت قلوبهم حبًّا لله عَزَّوَجَلَّ نتيجة لتفاعلهم مع آيات القرآن التي لا تخلو من بيان صور كرمه سبحانه على عباده وإنعامه عليهم.

تأمل معي وقد هاج عليهم هذا الحب والتاعت به قلوبهم، فذهبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بذلك ويقولون له: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا، فأنزل عَزَّوَجَلَّ قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١][1].

  

(١) المحبة للجنيد (برقم:٦٢) وتفسير الطبري (٦/ ٣٢٢) وتعظيم قدر الصلاة للمروزي (٢/ ٦٧٥ برقم: ٤٠) واللفظ له.

المحور الثالث:

القرآن والنفس

بمداومة قــراءة القرآن بتدبر وتفهم وترتيل تبدأ خريطة الإســلام تُرســم في الذهن، ويُعاد تشكيل العقل من جديد، ويُبنى فيه اليقين الصحيح.

ومــع التغيير الــذي يحدث في العقل فــإن القرآن كذلك يؤثر في المشــاعر ويوجهها تجاه الله عَزَّوَجَلَّ؛ مما يزيد الإيمان، وينصلح القلب فتنصلح الجوارح تبعًا له.

هــذا العمل الصالح الذي تقوم به الجوارح ســيواجه عقبة كبيرة تعمل على منع وصول أثره إلى القلب، هذه العقبة هي الشيء الذي وضعه الله داخلنا ليمتحننا به.

إنهــا النفس التي جُبلت على حب الراحة والشــهوات، والتي لا تفكر إلا في لذتها الآنية، ولا تنظر إلى عواقب أفعالها ولو كانت بعد لحظات، كالطفل الذي لا يفكر إلا فيما يريد وإن كان سيتسبب في هلكته.

أنواع الشهوات:

والشــهوات التي تسعى النفس دائمًا للحصول عليها إما أن تكون مادية مثل ما هو مذكــور في قوله تعالــى: ﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ** ﴾ [آل عمران: ١٤].

ومنها ما هو معنوي كحب الرفعة عمن حولها وتميزها على أقرانها، وأن تُحمد على أفعالها وترتفع منزلتها في عيون الآخرين.

فالنفس تُريد في كل لحظة من اللحظات استيفاء شهوة من شهواتها، في حين أنها تنفر من كل تكليف يُتعبها أو عمل لا تخرج منه بشيء من حظوظها.

من هنا كان استثقالها القيام بأي طاعة، فإذا ما دخل الإيمان القلب وارتفع منسوبه فيه، وبدأ في صراعه مع هوى النفس واستطاع أن ينتصر عليه؛ فإن إرادة القلب ستكون طوع أمره وستأمر الجوارح بتنفيذ ما يُريد من أعمال صالحة.

ولكن هل ستضع النفس سلاحها وتستسلم لقرار القلب وتنتظر معركة أخرى مع الإيمان أم سيكون لها توجه آخر؟!

عندما تنهزم النفس وهواها أمام داعي الإيمان، وتتأكد أنه لا حيلة لها إلا الاستسلام فإنها لا تترك الأمر هكذا يتم رغمًا عنها، بل يتحول اهتمامها إلى كيفية الاستفادة من هذا العمل لخدمة حظوظها.

ومن صور ذلك: إلحاحها على صاحبها ودعوته لإظهار عمله أمام الناس ليعظم قدره في أعينهم فيمدحوه، ويوقروه، ويعظموه... وهذا من أحب الأمور لدى النفس، بل يُعدّ من أهم الحظوظ لديها.

فإن لم يكن هناك فرصة لإظهار العمل أمام الناس كان هناك طريق آخر أمام النفس يخدم حظوظها، ألا وهو سعيها بأن تجعل العمل كبيرًا في عين صاحبها فتلح عليه كي يحمدها على قيامها به، فيؤدي ذلك إلى إعجابه بعمله، بل قد يصل به الأمر أن يظن أن له قدرًا عند الله بهذا العمل، وأنه أفضل من غيره، وشيئًا فشيئًا تعظم في عينه فيغتر بها ويتكبر على الآخرين.

هذا كله يؤدي إلى إحباط العمل وعدم وصول أثره إلى القلب، بل يزيده بعدًا

من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه قد وقع في الشرك الخفي والذي يعد من أخطر أنواع الشرك بعد الشرك الأكبر.

فالـــذي يعمل العمل وهو يريد به وجه الله، وفي الوقت نفســـه يريد أن ترتفع منزلته عند الناس فقد أشرك بالله الناس.

والذي يعمل ويرى أن نفسه هي التي أعانته عليه فقد أشرك بالله نفسه.

الشرك الخفي:

قال ابن تيمية: «الرياء شرك بالناس، والعُجب شرك بالنفس».

فكلا الأمرين ضـــد الإخلاص، فيُحرم القلب بذلك مـــن ثمرة العمل، بل إن ثمرته تخـــدم جانب الهوى أكثر، وتُقوِّي داعيه في القلب، وهو ما يســـميه العلماء بالشـــهوة الخفية، والتي قد تكون هي الدافع للعمل الذي يبدو أمام الناس أنه عمل صالح.

فأمر النفس إذن خطير، جد خطير، ولا بد أن يشـــتد حذرنا منها وانتباهنا إليها حتى لا تضيع علينا ثمرة أعمالنا:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

من هنا يتبين أن جهاد النفس على لزوم الصدق والإخلاص هو الضلع الثالث لمثلث التغيير، فكل ما ســـبق ذكره في جانبي العقل والقلـــب لن يؤتي أكله إلا إذا اكتمل بتزكية النفس وجهادها وترويضها على طاعة الله بصدق وإخلاص.

فـــإن كان الأمر بهذه الخطورة؛ فما هو دور القرآن في تغيير النفس والســـيطرة عليها واليأس من كونها سببًا لدفعنا للعمل الصالح الخالص لوجه الله؟!

يتجلي دور القرآن العظيم في تغيير النفس من خلال عدة محاور، أهمها تعريف الناس بحقيقة أنفسهم ومدى ضعفها، وتعريفهم بالله عَزَّوَجَلَّ وحقه عليهم، وإرشادهم إلى الوسائل التي تعينهم على جهاد أنفسهم، وإلزامها طاعة الله بصدق وإخلاص.

القرآن يعرفنا بأنفسنا:

من أهم الأمور التي تمهد للعبد الطريق إلى جهاد نفسه هو معرفته بها معرفة حقيقية، وعدم رضاه عنها، والتأكد أنها لن تأمره بشيء إلا إذا كان لها حظ فيه.

فمن أخطر الأشياء على العبد وثوقه بنفسه، ورضاه عنها، واعتقاده أنه يأتيه خير من قِبلها؛ لذلك نجد القرآن كثيرًا ما يعرفنا بأنفسنا وبخطورتها، وبضرورة الحذر الدائم منها.. مثل قوله تعالى: ﴿ **وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ** ﴾ [النساء: ١٢٨].

﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾** ﴾ [الشمس: ٧-١٠].

ويذكرنا القرآن بحقيقة نفوسنا: ﴿ **إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ** ﴾ [يوسف: ٥٣].

ولا يكتفي القرآن بتذكيرنا بحقيقة أنفسنا؛ بل يضرب لنا الأمثال، ويقص علينا القصص التي تُبيِّن خطورتها، وكيف استطاع الشيطان أن يستغل جهلها، وولوعها باستيفاء حظوظها العاجلة، وعدم نظرتها للعواقب.

فنجده يقصُّ علينا قصة ابني آدم، ودور النفس فيها:

﴿ **فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ** ﴾ [المائدة: ٣٠].

وإخوة يوسف الذين ألقوا بأخيهم في البئر فقال لهم أبوهم يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا** ﴾ [يوسف: ١٨].

وامرأة العزيز التي راودت يوسف عن نفسه، واعترفت بأن نفسها هي السبب في ذلك: ﴿ **وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ** ﴾ [يوسف: ٥٣].

وبنو إسرائيل الذين فعلوا الكثير مما يغضب الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المائدة: ٨٠].

والقرآن كذلك يُذكرنا بحقيقة ضعفنا أمام أنفسنا، وأننا لا نستطيع الصمود أمام إلحاحها، كما قال تعالى على لسان نبيه يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف: ٣٣].

معرفة حق الله:

من المحاور الرئيسة في قضية تغيير ما بالنفس معرفة حق الله على عباده، وأن جميع البشر مدينون لله عَزَّوَجَلَّ، ومهما اجتهد العبد في أداء الطاعات فلن يوفي جزءًا يسيرًا من هذا الحق.

هذه الحقيقة عندما تستقر في كيان الإنسان فإن من شأنها أن تُنسيه عمله الصالح، بمعنى أنه لن يظن أن له مكانة عند الله بهذا العمل، أو أنه يستحق به دخول الجنة ودرجاتها العلى، بل يعمل العمل ويجتهد فيه ثم يستغفر الله بعد القيام به لشعوره بأن حق الله عليه أعظم مما يفعل، وأنه إن لم تتداركه رحمة الله وعفوه فسيهلك، كمن أدان شخصًا بمبلغ كبير من المال مثلًا مليون دينار، ثم قام هذا الشخص بالاجتهاد في العمل وفي نهاية كل شهر قام بسداد درهم واحد.. ما هو شعور هذا الشخص وهو يقدم الدرهم لدائنه؟!.. هل شعور الفخر والإعجاب بهذا الدرهم، أم أنه سيُنكِّس رأسه وهو يعطيه له، ويشعره بتقصيره الشديد في حقه ويستعطفه ويرجوه أن يسامحه على تقصيره؟! بل يرى أن قبوله له محض فضل منه وإحسان.

هذا لو كان الدَيْن يساوي ذلك فقط، فما بالك بدين الله علينا الذي تعجز قدرات العقل عن إحصائه؟!!

فالله عَزَّوَجَلَّ له حقان على العبد: حق طاعة أوامره، وحق شكر نعمه.

والمتأمل لآيات القرآن يجد فيها مساحة كبيرة تتحدث عن حق الله على عباده وبخاصة دَيْن النعم، وتذكرهم ببعض تفاصيل هذا الحق وواجبهم نحوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

جوانب النعم:

يعدد لنا القرآن بعضًا من جوانب نعم الله علينا لنستشعر حجم الدَّين المستحق علينا، مثل:

* نعمة الإيجاد: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

* ونعمة الإمداد: مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٣٠].

* ونعمة التسخير: مثل قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ ﴾ [الجاثية: ١٣].

* ونعمة الحفظ: مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

* ونعمة الهداية: مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [الليل: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [النحل: ٩].

* ونعمة التوفيق: مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ [هود: ٨٨].

* ونعمة الثبات: مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [النساء: ٨٣].

* ونعمة العصمة من الفجور: مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١].

* ونعمة العفو: مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [النور: ١٤].

* ونعمة الأمن والستر، ونعمة سبق الفضل، والعافية، والإمهال.

والقرآن بعد أن يُعدِّد لنا بعضًا من جوانب النعم الإلهية على العباد يُطالبنا بشكر هذه النعم: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وشكر النعم يبدأ بملاحظتها وربطها بالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ﴾ [فاطر: ٣]، وكلما توسع العبد في ذكر نِعم ربه عليه ازدادا يقينًا بأنه لن يستطيع أن يؤدي حقها، وأنه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لو حاسبنا على نِعمه وطالبنا بحقه لهلكنا، كما قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ**»(١). فلا أمل لدينا إلا في رحمة الله ومغفرته وتجاوزه عن حقه، وعدم محاسبتنا على نعمه علينا.

عفو الله أو النار:

من هنا كان القرآن دومًا يُذكِّر بهذه الحقيقة، وبأن سعينا مهما بلغ فلن يوجب النجاة من النار فضلًا عن دخول الجنة، وأن هذه النجاة وهذا الفوز لن يحدث إلا إذا تفضل الله علينا ولم يحاسبنا على نعمه، وتجاوز عن حقه، وعن تقصيرنا في أدائه كما جاء في القرآن على لسان أحد الناجين من النار: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الصافات: ٥٧].

---

(١) البخاري (٨/ ١١١ برقم: ٦٥٣٦)، ومسلم (٤/ ٢٢٠٤، برقم ٢٨٧٦).

وليس معنى هذا ترك العمل والاجتهاد، فصاحب الدَين الذي يرى استهتارًا من المدين وعدم مبالاته بالسداد؛ يجعله يُعرض عنه ويغضب منه ولا يُفكر في إسقاط دينه، بخلاف من يراه مجتهدًا في السداد -مع عدم قدرته على الوفاء- فإنه قد يتجاوز عنه.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾** ﴾ [الأعراف: ٥٦].

فالعمل والاجتهاد في فعل الخيرات ما هو إلا وسيلة لنيل الرحمة والمغفرة والتعرض للعفو والتجاوز.

لذلك نجد القرآن يطالبنا بالاجتهاد في العمل للتعرض للرحمة والمغفرة الإلهية والتي إذا تمت للعبد فسيتبعها بمشيئة الله دخول الجنة، فضلًا ورحمة منه سبحانه.

قال تعالى: ﴿ **وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾** ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ويقول سبحانه: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾** ﴾ [البقرة: ٢١٨].

من فوائد النظر في حق الله:

كثرة التفكر والنظر في حق الله ودَيْنه علينا له كثير من الفوائد التي من شأنها أن تعيننا على تحري الصدق والإخلاص في أعمالنا.

فمن هذه الفوائد:

عدم رؤية العمل الصالح أو الاعتماد عليه بل استصغاره، والنظر إليه بعين النقص مهما كان اجتهاد العبد، فالذي يجتهد ويجتهد ثم يُسدد بضعة دراهم من دينه البالغ المليون دينار لن يشعر بأنه قدَّم شيئًا يُذكر، فتراه دومًا مستصغرًا ما يقدمه لدائنه طامعًا في عفوه.

عدم احتقار الآخرين أو الشعور بالأفضلية عليهم، فالكل مَدِين لله عَزَّوَجَلَّ ولا يسع الجميع سوى عفوه، وإلا فالنار مصير من لم يدركه هذا العفو.

فالذي يقدم خمسة دراهم لصاحب الدَّين الكبير لن يشعر بأنه أفضل ممن قدم درهمًا أو نصف درهم، فالكل مقصِّر، والكل يستحق العقوبة، ولا أمل إلا في المسامحة والعفو.

الخوف الدائم من عدم قبول العمل: فمن الطبيعي ألا يقبل صاحب الدين الكبير سداد جزء يسير منه، فإن قبله فهذا محض فضل وإحسان منه.

لذلك كان الصالحون يجتهدون ويجتهدون ثم يخافون ألا يقبل منهم. قال تعالى واصفًا حال هؤلاء: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

الحذر الشديد من السكون إلى النفس أو الإعجاب بها حتى لا يتعرض العبد لمقت الله ومعاملته بالعدل لا بالإحسان، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾ [التكاثر: ٨].

الاجتهاد في نسيان العمل بعد أدائه وعدم التحدث به أمام الآخرين.

سؤال الجنة استجداءً لا استحقاقًا؛ فمن تفضل الله عليه، وقبل عمله وتجاوز عن حقه لديه، وعفا عنه؛ أدخله الجنة ورفعه في درجاتها بهذ العمل القليل الذي أداه.. رحمة منه -سبحانه- وفضلًا..

وسائل عملية:

ومع تذكير القرآن الدائم لنا بحق الله علينا فإنه يدلنا كذلك على وسائل عملية تجعلنا دومًا مستشعرين لهذا الحق... منها:

١ـ ذكر النعم وإحصاء جوانبها:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ [فاطر: ٣].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ ﴾ [المائدة: ١١].

وقال تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩ ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فالتذكر الدائم لنعم الله عَزَّوَجَلَّ والعمل على إحصائها وكتابتها من أهم وسائل معرفة حق الله عَزَّوَجَلَّ علينا، ومن أكبر المعينات كذلك على شكره سبحانه.

٢ـ ربط النعم بالمنعم وحمده عليها:

مما يعين على دوام تذكر حق الله علينا؛ ربط أي نعمة جديدة بالمنعم العظيم وسرعة حمده عليها لينغلق الباب سريعًا أمام النفس، فلا تلح على صاحبها كي ينسب النعمة إليها، أو يحمدها عليها..

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨ ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

وقوله: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩ ﴾ [النمل: ١٩].

٣ـ الاستغفار بعد أداء الطاعة:

فالاستغفار بعد القيام بالطاعة دليل على استشعار العبد تقصيره في حق الله، وأن هذه الطاعة لا تليق بجلاله ولا توفي حقه.. فبعد الإفاضة من عرفات علينا بالاستغفار: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وبعد قيام الليل كذلك: ﴿ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧ ﴾ [آل عمران: ١٧].

معرفة النفس:

هذا بالنسبة لوسائل معرفة حق الله واستشعاره بصورة دائمة، أما بالنسبة لوسائل معرفة النفس والحذر منها فهي:

١ـ معرفة جوانب الفقر إلى الله:

فمعرفة جوانب الافتقار إلى الله عَزَّوَجَلَّ تُنسي العبد نفسه وتُشعره بضآلة حجمها، وتُريه دائمًا فضل ربه عليه، وأنه به سبحانه لا بنفسه، وأنه لو تركه لنفسه لهلك وضل، كالمريض صاحب الحالة الحرجة والذي تم إمداده بالمقويات والدم والهواء والسوائل من خلال أنابيب تتصل بجسمه ولو قُطعت عنه لهلك.

ولله المثل الأعلى؛ فنحن بدون الإمداد الإلهي المستمر لحظة بلحظة نفتقد كل مقومات وأسباب الحياة والعافية والهداية والثبات والعصمة من الفجور و... إلخ.

فمن عاش في هذه الحقيقة سيقطع بالكلية اعتماده على نفسه أو غيره، وسيتجه قلبه لله عَزَّوَجَلَّ، مادًّا يده إليه مستجديًا فضله آملًا ألا ينقطع مدده عنه.

جوانب الفقر إلى الله:

أفاض القرآن في بيان أوجه الفقر إلى الله عَزَّوَجَلَّ.. ومن ذلك:

* فقر الوجود وتوالي الإمداد: ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ** ﴾ [الأنعام: ٤٦].

* الفقر إلى الرزق: ﴿ **أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ** ﴾ [الملك: ٢١].

* فقر الهداية: ﴿ **وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ** ﴾ [الحجرات: ٧].

* فقر التوفيق والسداد: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].
* الفقر إلى العلم: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].
* فقر العصمة من الفجور: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].
* فقر العصمة من الكفر: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥].
* فقر العصمة من الظلم: ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون: ٩٤].
* فقر العصمة من الشيطان: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾ [النساء: ٨٣].
* الفقر إلى تزكية النفس: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].
* الفقر إلى الصبر: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].
* الفقر إلى النصر والتمكين: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].
* الفقر إلى الإعانة على القيام بالطاعة: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٣].
* الفقر إلى التوبة: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨].
* الفقر إلى إيجاد الماء: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾ [الملك: ٣٠].
* الفقر إلى وجود الليل والنهار وتعاقبهما: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ [القصص: ٧١].

* فقر الأمن من العواصف والبراكين والزلازل والخسف: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

* الفقر إلى نزول السكينة: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠)﴾ [القصص: ١٠].

* الفقر إلى الله في كشف الضر: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

* فقر الحفظ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

* فقر الولاية: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

٢ـ ومن وسائل اليأس من النفس:

كثرة الدعاء وسؤال الله كل شيء يحتاجه العبد كدليل على استشعاره لفقره الذاتي والمطلق إليه، وهذا في القرآن أكثر من أن يُحصى، مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨)﴾ [آل عمران: ٨]

٣ـ تتبع عيوب النفس:

وذلك من خلال التفكر في مواضع المنع والحرمان من العصمة الإلهية وتخلية الواحد منا بينه وبين الذنب؛ ليعرف قدر نفسه وأنها لن تأمره بخير، فلولا الله ما اهتدينا ولا صمنا، ولا صلينا، ولكُنَّا من أبعد خلقه عنه، وأكثرهم فجورًا.

فما أكثر الأوقات التي يشعر فيها العبد باستثقال الطاعة، وسهولة المعصية، وإلحاح نفسه عليه لارتكابها، فالعاقل من تتبع هذه المواقف وواجه نفسه بها ليُعرِّفها حقيقتها وقدرها، ويدرك مدى عجزها وجهلها وظلمها وفقرها إلى مولاها، وهذا ما كان يفعله الصالحون، كما جاء في القرآن على لسان آدم وزوجه بعد أن أكلا من

الشجرة: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وعلى لسان نبي الله موسى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ [القصص: ١٦].

وكذلك يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وعندما طلب نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سؤال النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند رؤيته ليثبت براءته قبل خروجه من السجن، عند ذلك اعترفت زوجة العزيز أنها هي التي رتبت ذلك كله، وأقرت بأن نفسها هي التي أمرتها بذلك فقالت: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٣].

٤ ـ التخويف من عاقبة الرياء والعجب والغرور:

من وسائل الحذر من النفس:

دوام التذكير بخطورة الرياء والعجب والغرور وإحباطهم للعمل؛ ليشتد حذر الإنسان من نفسه، ويخشى على عمله منها.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

٥ ـ الخوف من الله:

فالخوف هو أفضل لجام تُلجم به النفس:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الإنسان: ٨-١٠].

٦ـ التواضع:

التواضع من أفضل الوسائل التي تعين العبد على استصغار نفسه وعدم شعوره بالأفضلية على غيره، مهما كانت درجته أو ثقافته أو سبقه، ومن فوائده كذلك أنه لا يرى نفسه أهلًا لتحمل مسئولية، أو إمارة، بل يكون حاله كحال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما استصغر نفسه على حمل الرسالة بمفرده، وطلب من الله عَزَّوَجَلَّ أن يشاركه أخوه في حملها مع أنه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان أهلًا لذلك، وقد قام بحملها على أحسن وجه، وتحمل من فرعون ثم من بني إسرائيل الكثير والكثير.

قال تعالى على لسان موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾ [القصص: ٣٤].

وفي القرآن صور كثيرة للتواضع، وفيه كذلك تحذير من الكبر ومظاهره، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦].

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

٧ـ الإسرار بالعمل:

قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

٨- كثرة الإنفاق في سبيل الله:

فالإنفاق في سبيل الله يزكي النفس ويطهرها من شحها المجبولة عليه، فيجعلها سهلة سمحة مما يعين العبد على ترويضها.

قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

﴿ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن: ١٦].

نماذج تربوية:

القرآن لا يكتفي في موضوع النفس ببيان خطورتها، وضرورة الحذر منها، ووسائل جهادها؛ بل يعرض كذلك نماذج تربية الله عَزَّوَجَلَّ لرسله وأنبيائه على هذه المعاني العظيمة، وبخاصة رسولنا الكريم ﷺ.

فمن توجيهات القرآن لنبينا ﷺ:

التذكير الدائم بفضل الله عليه.. قال تعالى:

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [النساء: ١١٣].

* ويُذكِّره أنه بالله لا بنفسه... قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ ﴾ [النساء: ١١٣].

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٤].

* ويُذكِّره في بدايات الوحي بقوله: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ ﴾ [المدثر: ٦].

* ويذكره كذلك بمدى فقره إلى الله: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٦، ٨٧].

* ويعلمه كيف يُعبِّر عن حالة الفقر والمسكنة والاستسلام لله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

* ويذكره دومًا بأنه عبد لله عَزَّوَجَلَّ لا يملك من الأمر شيئًا مثله مثل سائر البشر:

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

احتياجات التغيير القرآني:

تعرفنا فيما سبق على طريقة القرآن في التغيير من خلال المحاور الثلاثة: العقل والقلب والنفس؛ لينتج ذلك كله شخصية سوية تتمتع بفكر صحيح وعاطفة جياشة، وسلوك سوي مستقيم، أي أنه ينتج عبدًا لله عَزَّوَجَلَّ في كل أموره وأحواله، شعاره قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

هذه القدرة الفذة على التغيير التي يحملها القرآن في طياته كيف نستدعيها وننتفع بها، أو بعبارة أخرى.. ما الأمور التي يحتاجها القرآن ممن يتعامل معه ليحدث فيه هذا التغيير؟

لو فكرنا معًا في هذا الأمر، واسترجعنا ما قيل في الصفحات السابقة لخلصنا إلى أن احتياجات التغيير القرآني تتمثل في هذه النقاط:

أولًا: تفريغ أكبر وقت للقرآن وعدم الانشغال بغيره ـ قدر المستطاع ـ ليتمكن القرآن من إعادة تشكيل العقل وترسيخ المعاني فيه، وبناء القاعدة الإيمانية في القلب، ومعرفة النفس معرفة حقيقة، وتزكيتها وترويضها على القيام بطاعة الله مع تحري الصدق والإخلاص.

وهذا يستدعي أيضًا المداومة على قراءته واعتبار أنه المصدر المتفرد للهداية الكاملة والشفاء التام؛ ومن ثم فهو يعد بمثابة الوجبة اليومية اللازمة للعقل والقلب والنفس، فبها يتم دوام التذكير، ووضوح الرؤية، ومن خلالها تتولد الطاقة الدافعة للعمل.

ثانيًا: التركيز الشديد عند قراءته والإنصات التام له، وعدم السماح للذهن أن يشرد.

ثالثًا: القراءة ببطء وترسل للتمكن من فهم المراد من الآيات، مع ترتيل آياته والتغني بها.

رابعًا: تدبر الآيات وفهم المعنى الإجمالي المقصود منها، وأن يكون الهدف من قراءته البحث عن الهدى والشفاء لتحقيق المقصد من نزوله.

خامسًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب لاستثارة المشاعر وترسيخ المعنى في اللاشعور وزيادة الإيمان في القلب.

سادسًا: حسن الاستفادة من الطاقة المتولدة من القراءة بتوجيهها نحو أعمال البر المختلفة والتي دلت عليها القراءة.

إن الذي يقرأ كتابًا -أي كتاب- له هدف من قراءته، والذي يستمع إلى مادة سمعية أو يقرأ صحيفة له هدف من ذلك، فماذا ينبغي أن يكون عليه الحال مع

القــرآن.. أعظم كتاب وأهم معلم على وجه الأرض؟ ألا ترى أنه لا ينبغي أن نقرأه لمجرد القراءة، أو طلب الثواب فقط وأن ننظر دومًا إلى الهدف الأســمى الذي من أجله أنزله الله عَزَّوَجَلَّ.

أهمية وجود الموجه التربوي:

لكي تكتمل عملية التغيير، ويُنتج القــرآن نماذج صحيحة؛ يُنصح بوجود من يقوم بمراقبة ومتابعة التطورات التي يحدثها القرآن في ذات المرء.

هــذه الوظيفة الخطيرة هي دور الرســل والأنبياء ومن ســار على نهجهم من العلماء الربانيين في كل زمان ومكان، وهي الوظيفة التي قام بها رسولنا الحبيب ﷺ خير قيام:

﴿ **هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾** ﴾ [الجمعة: ٢].

إن للقرآن تأثيرًا عظيمًا على العبد المؤمن إذا ما أحســن استقباله.. هذا التأثير قد يدفع -مثلًا- البعض إلى التشدد، وترك الاستمتاع بالطيبات.

وهنا يأتي دور الموجه التربوي الذي يتعهد إخوانه المؤمنين من حوله، فيضبط الفهم، ويرتب الأولويات، ويُوظف الطاقات.

تأمل معي خبر الثلاثة الذين ذهبوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته ﷺ، فلما أُخبروا كأنهم تَقَالّوها (أي عدُّوها قليلة)، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَــا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّســاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟! أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ**

وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»(١).

وَدَخَلَ ﷺ المَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: «**مَا هَذَا الْحَبْلُ؟**» قَالُوا هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ.. فَقَالَ ﷺ: «**لَا، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ**»(٢).

فللموجه التربوي إذن دور أساسي في عملية التغيير التي يقوم بها القرآن: ﴿**وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾**﴾ [الكهف: ٢٨].

  

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢ برقم: ٥٠٦٣) ومسلم (٢/ ١٠٢٠ برقم: ١٤٠١).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٥٣ برقم: ١١٥٠) ومسلم (١/ ٥٤١ برقم: ٧٨٤).

الفصل الرابع

القرآن بين الأولين والآخرين

القرآن بين الأولين والآخرين

قد يظن البعض أن ما سبق ذكره عن قدرة القرآن على التغيير فيه مبالغة، ولا يعدو أن يكون كلامًا نظريًّا.. هذا الظن فيه قدر كبير من الجهل بحقيقة القرآن ووظيفته المتفردة في الهداية والشفاء والإصلاح.

نعم -**أخي**- القرآن لديه القدرة الفذة على التغيير الجذري لأي شخص -كائنًا من كان- ومن أي نقطة يبدأ منها، واستبداله بشخص آخر عابدًا لله عَزَّوَجَلَّ في كل أموره وأحواله.

ومن فضل الله على هذه الأمة أن جعل القرآن يحدث هذا التغيير في أناس كانوا قبل إسلامهم غاية في الغرابة والجاهلية، فتعرضوا إلى تأثير معجزة القرآن فأحالتهم إلى أناس آخرين تفخر بهم البشرية إلى الآن.

إنها الدفعة الأولى التي تخرجت في مدرسة القرآن وبأعداد كبيرة.. جيل الصحابة.

الرسول والقرآن:

ومما ساعد القرآن على إحداث هذا التغيير في جيل الصحابة حُسن تعاملهم معه بعد أن فهموا المقصد من نزوله.

ولقد كان أستاذهم وقدوتهم في ذلك محمدًا ﷺ، فلقد عايش رسول الله ﷺ القرآن بكل كيانه وانصبغت حياته به، فكان قرآنًا يمشي على الأرض.

فلقد سُئلت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خُلق رسول الله ﷺ فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ: يَرْضَى لِرِضَاهُ، وَيَسْخَطُ لِسَخَطِهِ[١].

وجاءت سُـنَّته ﷺ شـارحة للقرآن وموضحة له، بل إن الإمام الشافعي عليـه رحمة الله يقول بأن كل ما حكم به رسـول اللـه ﷺ فهو مما فهمه من القرآن[٢].

وكانت قراءته ﷺ للقرآن قراءة متأنية مترسلة.. تقول السيدة حفصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسـول الله ﷺ يَقْرَأُ بِالسُّـورَةِ فَيُرَتِّلُهَا حَتَّى تَكُونَ أَطْوَلَ مِـنْ أَطْوَلَ مِنْهَا[٣]، وكان ﷺ يقف عند المعاني متأملًا ومعتبرًا، فإذا مر بآية فيها تسـبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ.

عَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَافْتَتَحَ الْبَقَرَةَ، فَقُلْتُ: يَرْكَـعُ عِنْدَ الْمِائَةِ، ثُمَّ مَضَى، فَقُلْتُ: يُصَلِّي بِهَا فِي رَكْعَةٍ، فَمَضَى، فَقُلْتُ: يَرْكَعُ بِهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَـاءَ، فَقَرَأَهَا، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرَانَ، فَقَرَأَهَا، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا، إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا تَسْبِيحٌ سَبَّحَ، وَإِذَا مَرَّ بِسُؤَالٍ سَأَلَ، وَإِذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ، ثُمَّ رَكَعَ[٤].

بل إنه ﷺ قَـامَ لَيلَةً بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ حَتَّى أَصْبَـحَ يُرَدِّدُهَا، وهي قوله تعالى: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ** ﴿١١٨﴾ ﴾[٥] [المائدة: ١١٨].

---

(١) رواه القاسـم بن سـلام في فضائل القرآن (ص:١١١) وأصله عند مسلم وغيره كان خلقه القرآن.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤).

(٣) رواه مسلم (١/ ٥٠٧ برقم: ٧٣٣).

(٤) رواه مسلم (١/ ٥٣٦ برقم: ٧٧٢).

(٥) رواه الإمام أحمد (٣٥/ ٢٥٦ برقم: ٢١٣٢٨) وابن ماجه (١/ ٤٢٩ برقم: ١٣٥٠) والنسائي في الكبرى (٢/ ٢٤ برقم: ١٠٨٤) والصغرى ٢/ ١٧٧ برقم: ١٠١٠).

التحذير من عدم الانتفاع بالقرآن:

وكان ﷺ يحـــذر أصحابه من الاهتمام بشـــكل الأداء فقط دون المعنى، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: بينما نحن نقترئ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «**الْحَمْـــدُ لِلَّهِ، كِتَابُ اللَّهِ وَاحِدٌ، وَفِيكُمُ الْأَخْيَارُ، وَفِيكُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْـــوَدُ، ثُمَّ قَالَ: اقْرَءُوا، اقْرَءُوا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ أَقْوَامٌ يَقْرَأُونَ يُقِيمُونَ حُرُوفَهُ كَمَا يُقَامُ السَّـــهْمُ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَتَعَجَّلُونَ أَجْرَهُ، وَلَا يَتَأَجَّلُونَهُ**»(١).

وكان رســـول الله ﷺ يؤكد لأصحابه على أن القـــارئ لا بد أن يفقه ما يقول، فعندما ســـأله عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن المدة التي يختم فيها القرآن قال ﷺ: «**اقْرَأْهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ**». قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَقْوَى عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ: «**اقْرَأْهُ فِي خَمْسٍ وَعِشْـــرِينَ**». قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَقْوَى عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِـــكَ. قَالَ: «**اقْرَأْهُ فِي عِشْـــرِينَ**»، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَقْوَى عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «**اقْرَأْهُ فِي خَمْسَ عَشْرَةَ**»، قَالَ: قُلْـــتُ: إِنِّي أَقْوَى عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «**اقْرَأْهُ فِي عَشْـــرٍ**»، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَقْوَى عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «**اقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ**»، قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي أَقْوَى عَلَى أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: «**لَا يَفْقَهُهُ مَنْ يَقْرَؤُهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»(٢).

القرآن علم يدعو للعمل:

وكان رســـول الله ﷺ يدرك قيمة القرآن العظمى وأنـــه منهاج حياة ومصدر ســـعادة للفرد في الدنيا والآخرة؛ لذلك كان حريصًا علـــى أن يتعامل الصحابة مع آيات القرآن على أنها رسائل جاءتهم من ربهم، تأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم،

---

(١) رواه ابـــن المبارك (برقم:٨١٣) وأحمد (٢٧/ ٥٠٩ برقـــم:٢٢٨٦٥) وأبو داود (١/ ٢٢٠ برقم: ٨٣١).

(٢) رواه أحمد (١١/ ١٠٤ برقم: ٦٥٤٦) وأصله في الصحيحين.

وهذا لن يتحقق إلا إذا جعلوا القرآن أمامهم واتبعوا تعليماته.

فالقرآن علم يدعو للعمل، فمن سار وراء توجيهاته كان من أهله، وإن لم يكن يقرؤه، وهذا لا يعني ترك قراءته، ولكن يعني الحرص على العمل بمقتضى علمه.

ومما لا شك فيه أن الذي يواظب على قراءته ويتلوه بالليل والنهار، ويقرن ذلك بالعمل أفضل بكثير ممن يعمل به ولا يقرؤه.

روى البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ: كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ: كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلاَ رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي لاَ يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ، وَلاَ رِيحَ لَهَا**»[1].

إن قيمة العلم الحقيقية فيما يحدثه من خشوع في القلب يدفع صاحبه للعمل.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِي ﷺ فَشَخَصَ بِبَصَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ قَالَ: «**هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لاَ يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**»، فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ؟ فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟**»، قَالَ جُبَيْرٌ: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ قُلْتُ: أَلاَ تَسْمَعُ إِلَى مَا يَقُولُ أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، إِنْ شِئْتَ لأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ: الْخُشُوعُ، يُوشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ جَمَاعَةٍ فَلاَ تَرَى فِيهِ رَجُلاً خَاشِعًا[2].

---

(١) رواه البخاري (٦/ ١٩٠برقم: ٥٠٢٠) ورواه مسلم (١/ ٥٤٩ برقم: ٧٩٧).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٣١ برقم: ٢٦٥٣) وقال: حسن غريب.

«فأخبر النبـــي ﷺ أن العلم عند أهل الكتابين من قبلنـــا موجود بأيديهم، ولا ينتفعون بشـــيء منه لما فقدوا المقصود منه، وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان بـــه، ومنفعته بحصول الخشـــية والإنابة لقلوبهـــم، وإنما هو على ألسنتهم تقوم به الحجة عليهم»(١).

من هنا يتبين لنا خطورة التحذير النبوي: «**الْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَك أَوْ عَلَيْك**»(٢).

عدم الاختلاف في القرآن:

لأن القرآن هو النعمة العظمى التي اختص الله بها هذه الأمة؛ ولأن عز المسلمين مرتبط بتمسكهم به، واجتماعهم عليه؛ كان رسول الله ﷺ حريصًا على عدم الاختلاف في القرآن، فما نعرف منه فلنعمل به، وما جهلنا فلنكله إلى عالمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشْـيَخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ فَجَلَسْنَا حَجْرَةً إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنْ الْقُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ مُغْضَبًا قَـــدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ وَيَقُـــولُ: «**مَهْلًا يَا قَوْمِ، بِهَذَا أُهْلِكَتْ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُـــمْ بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمْ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»(٣).

وَعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُـــولُ اللَّهِ ﷺ: «**اقرؤوا الْقُرْآنَ مَا ائْتَلَفَتْ قُلُوبُكُمْ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقومُوا عَنهُ**»(٤).

---

(١) الذل والانكسار لابن رجب ص (٤٦).

(٢) رواه مسلم (١/ ٢٠٣ برقم: ٢٢٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١/ ٣٠٤ برقم: ٦٧٠٢) وأصله عند مسلم.

(٤) رواه البخاري (٦/ ١٩٨ برقم:٥٠٦٠) ومسلم (٤/ ٢٠٥٣ برقم: ٢٦٦٧).

صفاء المنبع:

كان رسول الله ﷺ حريصًا على وحدة التلقي وصفاء المنبع الذي يستقي منه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فكان دائم التوجيه بعدم الانشغال بغير القرآن، جاءه عمر بن الخطاب يومًا بكتاب أصابه من بعض الكتب، فقال: يا رسول الله: إني أصبت كتابًا حسنًا من بعض أهل الكتاب، فغضب وقال: «**أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مُوسَى** عَلَيْهِ السَّلَامُ **حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**»(١).

يقول سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليقه على هذه الحادثة:

«إذن فقد كان هناك قصد من رسول الله ﷺ أن يُقصر النبع الذي يستقي منه ذلك الجيل في فترة التكوين الأولى على كتاب الله وحده، لتخلص نفوسهم له وحده، ويستقيم عودهم على منهجه وحده؛ ومن ثم غضب أن رأى عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يستقي من نبع آخر.

كان رسول الله ﷺ يريد صنع جيل خالص القلب، خالص العقل، خالص التصور، خالص الشعور، خالص التكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الإلهي الذي يتضمنه القرآن(٢).

الجيل الجديد:

استقبل الصحابة القرآن استقبالًا صحيحًا، وفهموا المقصد الأساسي من

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٥/ ٣١٢ برقم:٢٦٤٢١) وأحمد (٢٣/ ٣٤٩ برقم: ١٥١٥٦)، والتهوك كالتهور وهو الوقوع في الأمر بغير روية، والمتهوك: الذي يقع في كل أمر، وقيل هو: التحير - ابن الأثير في الغريب.

(٢) معالم في الطريق (١٣-١٤).

نزوله فانصبغت حياتهم به، وقطف الإسلام أطيب الثمار بظهور هذا الجيل الفريد الذي لم تشهده البشرية -وبهذا الكم- بعد ذلك.

إنه لأمر عجيب يشهد بقدرات هذا الكتاب على إحداث ذلك التغيير الجذري في النفوس.. أمة تعيش في الصحراء.. حفاة عراة.. فقراء، بلا مقومات تُذْكر، لا توضع في حسابات القوى الكبرى آنذاك من فرس وروم، وإن شئت فقل إنها كانت تابعة لهما.. فيأتي القرآن ليغير هذه الأمة ويعيد صياغة شخصيتها، وكيانها من جديد، ويرفع هامات أبنائها إلى السماء، ويربطها بالله، ويُشعرها بالعزة والرفعة بإيمانها ودينها الذي ارتضاه الله لها.

يأتي القرآن ليصنع أمة جديدة لم يعهدها العالم من قبل.. تحطم الإمبراطوريات وتقلب الموازين، وتصبح في سنوات معدودات صاحبة القوة الأولى في الأرض بين الأمم.. الكل يخشاها.. الكل يتودد إليها.. لا تُشترى بالمال ولا بالجاه.. أمة عرفت مصدر عزتها فتمسكت به فأحسن قيادتها، وأسعد بها الدنيا ردحًا من الزمن.

انظر مثلًا إلى واحد من هؤلاء وهو يُجيب على رستم قائد الفرس عندما سأله: ما الذي جاء بكم؟ فقال له: الله جاء بنا.. وهو الذي بعثنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأهله، ومن أبى إلا الحرب قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر.

إنها العزة التي جعلت عمر بن الخطاب يقول لأبي عبيدة بن الجراح حين طلب منه أن يغير ثيابه المرقعة لتسلّم بيت المقدس ومقابلة عظماء النصارى: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

وحدة التصور والسلوك:

عندما اتجه الصحابة بكليتهم إلى القرآن أنشأ عندهم وحدة التصور؛ مما أثمر إلى حد كبير وحدة السلوك، ولم لا والكتاب الذي تلقوا منه أفكارهم وتصوراتهم واحد.

أخرج ابن المبارك في الزهد أن عمر بن الخطاب أخذ أربع مائة دينار فجعلها في صرة ثم قال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم تلهَّ ساعة في البيت حتى تنظر ما يصنع، فذهب بها الغلام إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه في بعض حوائجك. فقال: وصله الله ورحمه، ثم قال: تعالي يا جارية! اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها. فرجع الغلام إلى عمر بن الخطاب فأخبره ووجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل فقال: اذهب بها إلى معاذ بن جبل ثم تلهَّ في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع، فذهب به إليه فقال: يقول لك أمير المؤمنين: اجعل هذا في حاجتك، فقال: وصله الله ورحمه، تعالي يا جارية! اذهبي إلى فلان بكذا وإلى بيت فلان بكذا وإلى بيت فلان بكذا، فاطلعت امرأة معاذ، فقالت: ونحن والله مساكين فأعطنا فلم يبق في الخرقة إلا ديناران، فدحا بهما إليها، فرجع الغلام إلى عمر فأخبره، فسُرَّ بذلك عمر وقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض[(١)].

من وصايا الصحابة:

لقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يستشعرون جيدًا أن استمرار عزة الإسلام ورفعته مرهون باستمساك أبنائه بالقرآن، فهو حبل الله الذي يجمع ولا يفرق، كما قال تعالى: ﴿ **وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ** ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

(١) الزهد لابن المبارك (١٧٨، ١٧٩ برقم: ٥١١).

وكانوا يدركون أن الاستمساك بالقرآن يعني اتخاذه دليلًا ومصباحًا وهاديًا لكل ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، فكانوا شديدي الحرص على استمرار تعامل الأجيال التي تليهم مع القرآن بنفس الطريقة التي تعاملوا بها معه، وكانوا كذلك شديدي الخوف أن يتحول القرآن من كتاب هداية يصنع النفوس الكبار ويحرر القلوب من أسر الدنيا، وينقذ البشرية من الضلال إلى مجرد تراتيل ترددها الألسن ولا تتجاوز الحناجر.

وتجلى هذا جيدًا في توجيهاتهم ووصاياهم لمن بعدهم.

فمن هذه الوصايا:

التفرغ للقرآن وعدم الانشغال بغيره:

التفرغ للقرآن وعدم الانشغال بغيره من شأنه أن يجعل تصورات الشخص وخواطره ومنطلقات سلوكه تنطلق من معاني القرآن؛ لذلك كان الصحابة شديدي الحرص على تبليغ هذه الوصية لمن بعدهم، وبخاصة بعد انتشار الفتوحات، ودخول الكثيرين في الإسلام ممن لم يعايشوا أجواء القرآن.

تأمل معي هذه الوصية لعبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ والتي يقول فيها: جردوا القرآن ليربوا فيه صغيركم، ولا ينأى عنه كبيركم، فإن الشيطان يفر من البيت يَسْمَعُ تُقرأ فيه سورة البقرة.

قال شعبة -أحد رواة هذا الأثر: فحدثت به أبا التياح وكان عربيًّا فقال: نعم، أُمروا أن يجردوا القرآن. قلت له: ما جردوا القرآن؟ قال: لا يخلطون به غيره[1].

وعن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: أصبت أنا وعلقمة صحيفة، فانطلقنا

---

(١) فضائل القرآن للفريابي، ص (١٥١، ١٥٢).

إلى ابن مسعود بها، وقد زالت الشمس أو كادت تزول، فجلسنا بالباب ثم قال للجارية: انظري من بالباب، فقالت: علقمة والأسود، فقال: ائذني لهما، قال: فدخلنا، فقال: كأنكما قد أطلتما الجلوس؟ قلنا: أجل. قال: فما منعكما أن تستأذنا؟ قالا: خشينا أن تكون نائمًا. فقال: ما أحب أن تظنا بي هذا، إن هذه الساعة كنا نقيسها بصلاة الليل. فقلنا: هذه صحيفة فيها حديث حسن، فقال: هاتها، يا جارية هاتي الطست فاسكبي فيها ماء. قال: فجعل يمحوها بيده ويقول: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]، فقلنا: انظر فيها، فإن فيها حديثًا عجيبًا، فجعل يمحوه ويقول: إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره.

قال أبو عبيد في تعليقه على هذا الخبر: إن هذه الصحيفة أُخذت من بعض أهل الكتاب؛ فلهذا كرهها عبد الله[(١)].

جردوا القرآن:

كان عمر بن الخطاب ينهى وهو يرسل الجيوش عن الإكثار من رواية الحديث لعدم شغل الناس عن القرآن.. فعَنْ قَرَظَةَ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: خَرَجْنَا نُرِيدُ الْعِرَاقَ، فَمَشَى مَعَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى صِرَارَ، فَتَوَضَّأَ، فَغَسَلَ اثْنَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرُونَ لِمَ مَشَيْتُ مَعَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، نَحْنُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَشَيْتَ مَعَنَا، قَالَ: إِنَّكُمْ تَأْتُونَ أَهْلَ قَرْيَةٍ لَهُمْ دَوِيٌّ بِالْقُرْآنِ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، فَلَا تَصُدُّوهُمْ بِالْأَحَادِيثِ، فَتَشْغَلُوهُمْ، جَرِّدُوا الْقُرْآنَ، وَأَقِلُّوا الرِّوَايَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، امْضُوا، وَأَنَا شَرِيكُكُمْ، فَلَمَّا قَدِمَ قَرَظَةَ قَالُوا: حَدِّثْنَا، قَالَ: نَهَانَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(٢)].

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد، ص (٧٣).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ٩٩٩ برقم: ١٩٠٦)، ورواه الدارمي (١/ ٣٢٨ برقم: ٢٨٧)، وابن ماجه (١/ ١٢ برقم: ٢٨).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا يَخْطُبُ وَيَقُولُ: «أَعْزِمُ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ كِتَابٌ إِلَّا رَجَعَ فَمَحَاهُ، فَإِنَّمَا هَلَكَ النَّاسُ حَيْثُ تَتَبَّعُوا أَحَادِيثَ عُلَمَائِهِمْ وَتَرَكُوا كِتَابَ رَبِّهِمْ»[١].

ويعلق الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذين الخبرين فيقول: فعمر وعلي وغيرهما من الأئمة لا يجحدون السنة، ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاوة والإقبال. وذلك هو الترتيب الطبيعي، فلا بد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض في شروح وتفاصيل لبعض أجزائه؛ إذ إن هذه التفاصيل والشروح لا يحتاج إليها كل أحد، وربما شحنت الأذهان فلم تترك بها فراغًا للأصول اللازمة والقواعد المهمة[٢].

لقد أدرك الصحابة القيمة العظمى للقرآن، وقدرته على التغيير، وأدركوا كذلك أن انشغال الناس بغيره سيشتت الذهن ويصرف الوقت؛ مما سيؤدي إلى عدم تمكن القرآن من قيادتهم وتغييرهم.

تأمل معي ما قاله الحارث الأعور.. قَالَ: دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا أُنَاسٌ يَخُوضُونَ فِي أَحَادِيثَ، فَدَخَلْتُ عَلَى عَلِيٍّ فَقُلْتُ: أَلَا تَرَى أَنَّ أُنَاسًا يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ فِي الْمَسْجِدِ؟ فَقَالَ: قَدْ فَعَلُوهَا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: أَمَا إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ**» قُلْتُ: وَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ قَالَ: «**كِتَابُ اللَّهِ، كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، هُوَ الَّذِي مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، فَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ**

(١) رواه ابن أبي شيبة (٥/ ٣١٤ برقم: ٢٦٤٣٩)، وابن عبد البرفي جامع بيان العلم وفضله (١/ ٢٧١ برقم: ٣٣٧) واللفظ له.

(٢) فقه السيرة للغزالي (ص: ٣٧).

الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ [الجن: ١]، هُوَ الَّذِي مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[١].

ومن هذه الوصايا: تأكيدهم المستمر بضرورة التدبر لآيات القرآن والاجتهاد في العمل بما تدل عليه:

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا إِذَا تَعَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزْهُنَّ حَتَّى يَعْرِفَ مَعَانِيَهُنَّ وَالْعَمَلَ بِهِنَّ[٢].

ويؤكد هذا المعنى أبو عبد الرحمن السلمي، وهو أحد تلامذة الصحابة فيقول: إِنَّمَا أَخَذْنَا الْقُرْآنَ عَنْ قَوْمٍ أَخْبَرُونَا أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخَرِ حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعَمَلِ، قَالَ: فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا ،وَأَنَّهُ سَيَرِثُ الْقُرْآنَ بَعْدَنَا قَوْمٌ يَشْرَبُونَهُ شُرْبَ الْمَاءِ لا يُجَاوِزُ هَذَا، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَنَكِهِ[٣].

وفي هذا المعنى يقول عمر بن الخطاب: لَا يَغُرَّنَّكُمْ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، إِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ يُتَكَلَّمُ بِهِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى مَنْ يَعْمَلُ بِهِ[٤].

---

(١) رواه الدارمي في سننه (٤/ ٢٠٩٨ برقم: ٣٣٧٤). وأحمد (٢/ ١١١ برقم: ٧٠٤) والترمذي (٥/ ١٧٢ برقم: ٢٩٠٦) وقال حديث غريب.

(٢) تفسير االطبري (١/ ٨٠).

(٣) فضائل القرآن للفريابي (٢٤١).

(٤) اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي (٧١).

ويقول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]. قال: يتبعونه حق اتباعه. وقال عكرمة: ألا ترى أنك تقول «فلان يتلو فلان»: أي يتبعه ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[1] [الشمس: ١، ٢].

العمل مقدم على الحفظ:

لقد كانت قضية العمل بما يتعلمونه من القرآن لا يختلف عليها اثنان منهم؛ لهذا ـ كما يقول ابن تيمية ـ كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

قال أنس: كَانَ الرَّجُلُ إِذَا قَرَأَ: الْبَقَرَةَ، وَآلَ عِمْرَانَ، جَدَّ فِينَا[2]. وفي رواية: يُعد فينا عظيمًا.

ولقد ظل عمر بن الخطاب يتعلم ويحفظ في سورة البقرة اثنتي عشرة سنة، فلما أتمها نحر جزورًا[3]، وهذا ابنه عبد الله يتعلمها في ثماني سنين[4].

فالعمل بالقرآن كان لديهم مقدمًا على حفظه، ولقد مات الكثير من أكابر الصحابة، بل من العشرة المبشرين بالجنة دون أن يتموا حفظ القرآن.

أخرج ابن سعد في طبقاته عن محمد بن سيرين قال: قُتل عمر ولم يجمع القرآن[5].

وكما يقول الحسن البصري أن رسول الله ﷺ تُوفي وما استكمل حفظ القرآن من أصحابه رضوان الله تعالى عليهم إلا النفر القليل، استعظامًا له، ومتابعة لأنفسهم

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٣٠).
(٢) مقدمة أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٩٩)، والحديث رواه أحمد (١٩/ ٢٤٧ برقم: ١٢٢١٥، ١٢٢١٦).
(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣٤٦ برقم:١٨٠٥).
(٤) رواه الإمام مالك في الموطأ.
(٥) طبقات ابن سعد (٣/ ٢٢٤).

بحفظ تأويله والعمل بمحكمه ومتشابهه[(١)].

وفي هذا يقول عبد الله بن مسعود: «إِنَّا صَعُبَ عَلَيْنَا حِفْظُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَسَهُلَ عَلَيْنَا العَمَلُ بِهِ، وَإِنَّ مَنْ بَعْدَنَا يَسْـهُلُ عَلَيْهِمْ حِفْـظُ القُرْآنِ، وَيَصْعُبُ عَلَيْهِمُ العَمَلُ بِهِ»[(٢)].

وكان ابن عمر يقول: «كَانَ الفَاضِلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ لَا يَحْفَظُ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا السُّـورَةَ أَو نَحْوَهَـا، وَرُزِقُوا العَمَلَ بِالقُرْآنِ، وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ يُرْزَقُونَ القُرْآنَ، مِنْهُمُ الصَّبِيُّ وَالأَعْمَى، وَلَا يُرْزَقُونَ العَمَلَ بِهِ»[(٣)].

وفي رواية أخرى: «كُنَّا صَدْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُـولِ اللَّهِ ﷺ مَا مَعَهُ إِلَّا السُّـورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ شِـبْهُ ذَلِكَ وَكَانَ الْقُـرْآنُ ثَقِيلًا عَلَيْهِمْ وَرُزِقُوا الْعَمَلَ بِهِ وَإِنَّ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُخَفَّفُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ حَتَّى يَقْرَأَهُ الصَّبِيُّ وَالْأَعْجَمِيُّ فَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ»[(٤)].

تصحيح مفهوم حامل القرآن:

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: من جمع القرآن فقد حمل أمرًا عظيمًا، فقد أُدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه.

ولقد جمع أبو موسـى الأشعري الذين قرؤوا القرآن وهم قريب من الثلاثمائة فعظَّـم القرآن وقال: «إِنَّ هَذَا الْقُـرْآنَ كَائِنٌ لَكَمْ ذِكْرَى، وَكَائِنٌ لَكَـمْ أَجْرًا، أَوْ كَانَ عَلَيْكُمْ وِزْرًا، فَاتَّبِعُوا الْقُـرْآنَ، وَلَا يَتَّبِعْكُمُ الْقُرْآنُ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعِ الْقُرْآنَ يَهْبِطْ بِهِ عَلَى

(١) الحسن البصري لابن الجوزي (ص:٩٨).
(٢) تفسير القرطبي (١/ ٤٠).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٣٠).
(٤) أخلاق حملة القرآن للآجري.

رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ يَتَّبِعْهُ الْقُرْآنُ يَزُخُّ فِي قَفَاهُ فَيَقْذِفُهُ فِي جَهَنَّمَ»[١].

وكان أبو عبد الرحمن السلمي إذا ختم عليه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه، ووضع يده على رأسه وقال له: يا هذا اتقِ الله، فما أعرف أحدًا خيرًا منك إن عملت بالذي علمت[٢].

وكان محمد بن كعب القرظي يقول: كنا نعرف قارئ القرآن بصُفرة اللون[٣].

فلا يصح جمع القرآن عندهم إلا بالعمل به أولًا، وهذا ما أشار إليه الحسن البصري بقوله: إن أَولى الناس بهذا القرآن من اتبعه وإن لم يقرأه[٤].

ويؤكد ابن عبد البر على هذا المعنى فيقول: وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه، وحلاله وحرامه، والعاملون به[٥].

ولقد أتى رجل أبا الدرداء فقال: إن ابني جمع القرآن، فقال: اللَّهُمَّ غفرًا، إنما جمع القرآن مَن سمع له وأطاع[٦].

ومن وصاياهم: الإيمان قبل القرآن:

والمقصد من هذه الوصية غرس قواعد الإيمان في القلب وإقامة صرحه وتمكنه من الإرادة قبل حفظ حروف القرآن، وكذلك الإيمان بالقرآن وقدره ووظيفته المتفردة في الهداية والشفاء والتغيير.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٦/ ١٢٦ برقم: ٣٠٠١٤) والدارمي (٤/ ٢٠٩٦ برقم:٣٣٧١).
(٢) التذكار في أفضل الأذكار (ص: ٦٧) دار الكتب العليمة.
(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١١٢).
(٤) المصدر السابق (ص:١٣٤).
(٥) التذكار في أفضل الأذكار للقرطبي (١٤٨).
(٦) فضائل القرآن لأبي عبيد (١٣٣).

يقول جُنْـدُب بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: كُنَّا مَـعَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَـزَاوِرَةٌ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا(١).

ويؤكد علـى هذا المعنى عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بقوله: لَقَدْ عِشْـنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَـا وَأَحَدُنَا يُؤْتَى الْإِيمَانُ قَبْلَ الْقُرْآنِ، وَتَنْزِلُ السُّـورَةُ عَلَـى مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَتَعَلَّمُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ نُوقَفَ عِنْدَهُ مِنْهَا، كَمَا تَعَلَّمُونَ أَنْتُمُ الْقُرْآنَ، ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ رَأَيْتُ رِجَالًا يُؤْتَى أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ، فَيَقْرَأُ مَا بَيْنَ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، وَلَا يَدْرِي مَا آمِرُهُ وَلَا زَاجِرُهُ، وَلَا مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفَ عِنْدَهُ مِنْهُ، وَيَنْثُرُهُ نَثْرَ الدَّقل(٢).

فإن كنت في شـك من هذا فتأمل معي هذا الخبر: كتب إلى عمر بن الخطاب بعـضُ عماله في العراق يخبرونه أن رجالًا قد جمعوا كتاب الله تعالى، فكتب لهم عمـر أن افرض لهم في الديوان، فكثر من يطلب القرآن، فكُتب إليه من قابل أنه قد جمع القرآن سبعمائة رجل. فقال عمر: «إني لأخشى أن يُسرعوا في القرآن قبل أن يتفقهوا في الدين، فكتب ألا يُعطيهم شيئًا»(٣).

ويُطلق الحسـن البصري ربيب الصحابة وأحد كبار التابعين تحذيره مِن حفظ حروف القرآن فقط، فيقول: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر من أوله. قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبر آياته إلا اتباعه بعلمه. أما -والله- ما هو بحفظ حروفه وإضاعـة حدوده، حتى إن أحدهـم ليقول: والله لقد قـرأت القرآن كله ما

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٢٣ برقم:٦١)، وحزاورة جمع الحزور، وهو الشـاب الممتلئ نشـاطًا وقوة وجلدًا.
(٢) رواه الحاكم (١/ ٩١ برقم:١٠١) وصححه ووافقه الذهبي. والدقل: هو رديء التمر.
(٣) الحوادث والبدع للطرطوشي (ص:٩٧) دار ابن الجوزي.

أســقطت منه حرفًا.. وقد والله أسقطه كله، ما رُئي القرآن له في خلق ولا عمل، وإن أحدهم ليقول: والله إني لأقرأ الســورة في نفس واحد ما هؤلاء بالقرّاء ولا العلماء ولا الورعة.. متى كان القرّاء يقولون مثل هذا؟ لا كثَّر الله في الناس مثل هذا(١).

فالحســن البصري يحذر من عدم أخذ أمر القرآن من أوله، وأوله كما مر علينا هو معرفة المقصــد الأعظم من نزوله وما يقتضيه ذلك مــن تعلم ما فيه من إيمان وعمل، ليأتي بعد ذلك الحفظ على قاعدة سليمة فيزداد به القلب إيمانًا.

ومن وصاياهم: ضرورة تدبر القرآن وفهمه وتحريك القلب به:

عن أبي جمرة قال: قلت لابن عباس: إني ســريع القراءة وإني أقرأ القرآن في ثــلاث، فقال: لأن أقرأ البقرة فــي ليلة فأدَّبرها وأرتلها أحب إلــيَّ من أن أقرأ كما تقول(٢).

وهكــذا كان يفعل ابن عبــاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا... يقول ابن أبي مليكة: ســافرت مع ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا من مكة إلى المدينة وهم يســيرون إليها وينزلون بالليل، فكان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقوم نصف الليل فيقرأ القرآن حرفًا حرفًا ثم حكى قراءته يبكي حتى تسمع له نشيجًا(٣).

وعــن ابن أبي ذئب رَحِمَهُ اللَّهُ عن صالح قال: كنــت جارًا لابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكان يتهجد من الليل فيقرأ الآية ثم يســكت قدر ما حدثتك، وذاك طويل، ثم يقرأ. قلت: لأي شيء فعل ذلك؟ قال: من أجل التأويل يُفكر فيه(٤).

---

(١) المصدر السابق (٢٠٩، ٢١٠).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٥٧).

(٣) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر (ص ١٣١).

(٤) المصدر السابق (ص:١٤٩).

فبمثل ما كان يقرأ ابن عباس كانوا يوصون.

ومع شدة انشغالهم بالقرآن واعتنائهم به إلا أنهم كانوا يتفاوتون في مدة ختمه.

أخرج ابن أبي داود عن مكحول قال: كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرؤون القرآن في سبع، وبعضهم في شهر، وبعضهم في شهرين، وبعضهم في أكثر من ذلك[١].

ولقد سأل رجل زيد بن ثابت: كيف ترى في قراءة القرآن في سبع؟ فقال: ذلك حسن، ولأن أقرأه في نصف شهر أو عشرين يومًا أحب إليّ، وسلني مم ذاك؟ فقال: فإني أسألك. قال زيد: لكي أتدبره وأقف عليه[٢].

فالعبرة عندهم ليست بكم القراءة بقدر ما كانت بالمعاني المستخرجة منها والتي تحرك القلوب وتدفع للعمل.

لذلك كان من وصايا ابن مسعود: لا تَهُذُّوا القرآن هَذَّ الشِّعْر، ولا تَنْثُرُوه نَثْر الدَّقل، وقِفُوا عند عجائبه، وحَرِّكُوا به القلوب، ولا يكن هَمُّ أحدِكم آخر السورة[٣].

القراءة المتأنية أدعى لحسن الفهم:

سُئل الإمام مجاهد -تلميذ ابن عباس- عن رجل قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قيامهما واحد، وركوعهما واحد، وسجودهما واحد، وجلوسهما واحد، أيهما أفضل؟ فقال: الذي قرأ البقرة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[٤] [الإسراء: ١٠٦].

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٣٦٢). الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) مختصر قيام الليل (ص:١٤٩).

(٣) مختصر قيام الليل (ص:١٣٢).

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٥٨).

ولقد قيل للسيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا أم المؤمنين إن أناسًا يقرأ أحدهم القرآن في ليلة مرتين أو ثلاثًا، فقالت: قرؤوا ولم يقرؤوا، كان رسول الله ﷺ يقوم ليلة التمام فيقرأ سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة النساء، لا يمر بآية فيها استبشار إلا دعا الله تعالى ورغب، ولا يمر بآية فيها تخويف إلا دعا الله واستعاذ[١].

وفي صحيح مسلم عن أبي وائل قال: جاء رجل يقال له نهيك بن سنان إلى عبد الله بن مسعود فقال: يا أبا عبد الرحمن: كيف تقرأ هذا الحرف، ألفًا تجده أم ياء «من ماء غير آسن» أو «من ماء غير ياسن» قال: فقال عبد الله: وكل القرآن قد أحصيت غير هذا؟ قال: إني لأقرأ المفصل في ركعة. فقال عبد الله: هذًّا كهذِّ الشعر؟ إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب، فرسخ فيه، نفع.

ويُعلق النووي على قول ابن مسعود: معناه إن قومًا ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان، فلا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم، وليس ذلك هو المطلوب، بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب[٢].

فلا بديل عن التدبر..

فإن قلت فما هو الحد الأدنى للسرعة في القراءة؟!

يوضح ذلك الحسن بن علي بقوله: اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرؤه[٣].

وعندما قال أبو جمرة لابن عباس: إني سريع القراءة، إني لأقرأ القرآن في

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ٤٢١ برقم: ١١٩٦).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/ ١٠٥)، دار إحياء التراث العربي.
(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٣٣).

ليلة.. قال ابن عباس: لأن أقرأ سورة أحب إليّ.. إن كنت لابد فاعلًا فاقرأ قراءة تُسمعها أذنيك ويوعها قلبك(١).

ومن هديهم في تلاوتهم للقرآن: ترديد الآية التي تؤثر فيهم:

عن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهي تقرأ: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الطور: ٢٧] قال: فوقفت عليها فجعلت تستعيذ وتدعو، قال عبادة: فذهبت إلى السوق، فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي فيها بعد، تستعيذ وتدعو(٢).

وظل عبد الله بن مسعود يردد قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾ ﴾(٣) [طه: ١١٤]، حتى أصبح.

وظل عمر بن الخطاب يردد الفاتحة في ليلة لا يزيد عليها حتى أصبح(٤).

وقرأ عامر بن قيس ليلة من سورة المؤمن فلما انتهى إلى قوله: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ ﴾ [غافر: ١٨]، فلم يزل يرددها حتى أصبح(٥).

ومن وصاياهم: عدم التعمق في إقامة حروف القرآن:

أخرج ابن الضريس في فضائل القرآن عن الحارث بن قيس قال:

كنت رجلًا في لساني لُكنة، وكنت أتعلم القرآن فقيل لي: ألا تعلم العربية قبل أن تعلم القرآن! فذكرت ذلك لعبد الله بن مسعود وقلت: إنهم يضحكون مني،

---

(١) فتح الباري (٩/ ٨٩). دار المعرفة.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٥ برقم:٦٠٣٧)، ونحوه عند القاسم أبي عبيد ومحمد ابن نصر.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٤٦).

(٤) المصدر السابق (ص:١٤٧).

(٥) المصدر السابق (ص: ١٤٧).

ويقولون: تعلم العربية قبل أن تعلم القرآن، فقال: لا تفعل، فإنك في زمان تحفظ فيه حدود القرآن، ولا يبالون حفظ كثير من حروفه، وإن بعدك زمانًا تحفظ فيه الحروف وتُضيع فيه الحدود[١].

وكأن ابن مسعود يريد أن يلفت الانتباه إلى أن الجهد الأكبر ينبغي أن ينصب في اتجاه المعنى وما يحدثه في القلب وليس في اتجاه إقامة الحروف، وليس معنى هذا إهمال هذا الأمر، ولكن وضعه في حجم معقول يتناسب مع أهميته، فشكل العبادة -أي عبادة- مهم وضروري للدخول بها على الله عَزَّوَجَلَّ، ولا قيمة لعبادة تؤدى بشكل مبتدع، ولكن مع الاهتمام بالشكل ينبغي أن يكون الاهتمام الأكبر والأشمل لجوهر العبادة وروحها وما تحدثه في القلب.

وفي هذا المعنى يقول حذيفة: إن أقرأ الناس للقرآن منافق يقرؤه، لا يترك منه واوًا ولا ألفًا يلفته بلسانه، كما تلفت البقرة الخلاء بلسانها لا يجاوز ترقوته[٢].

وتأمل ما قاله فضالة بن عبيد الأنصاري لأبي سكينة: خذ هذا المصحف وأمسك عليّ ولا تردَّن عليّ ألفًا ولا واوًا، فإنه سيكون قوم يقرؤون القرآن لا يسقطون منه ألفًا ولا واوًا ثم رفع فضالة يديه، فقال: اللهم لا تجعلني منهم[٣].

وهذا عبد الله بن مسعود يصف زمانه ويقارنه بأزمان أخرى فيقول: إنك في زمان قليل قراؤه كثير فقهاؤه.. تحفظ فيه حدود القرآن، ويُضيع حروفه.. قليل من يسأل.. كثير من يعطي.. يطيلون فيه الصلاة ويقصرون فيه الخطبة.. يبدون فيه أعمالهم قبل أهوائهم.. وسيأتي على الناس زمان كثير قراؤه، قليل فقهاؤه، تحفظ

(١) فضائل القرآن لابن الضريس، (ص: ٢٧).
(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:٢١١).
(٣) المصدر السابق (ص: ٢١٢).

فيه حروف القــرآن، وتضيع حدوده.. كثير من يســأل، قليل مــن يعطي، يطيلون الخطبة، ويقصرون الصلاة، ويبدون أهواءهم قبل أعمالهم[١].

ولقد قرأ رجل عند عمر بن عبد العزيز سورة، وعنده رهط.. قال بعض القوم: لحن. فقال عمر: أما كان فيما سمعت ما يشغلك عن اللحن؟[٢].

ومن وصاياهم: اترك نفسك للقرآن وتمسك به:

عن أبي قلابة أن رجلًا من أهل الكوفة لقي أبا الدرداء فقال: إن إخوانًا لك من أهل الكوفة يقرئونك السلام، ويأمرونك أن توصيهم. فقال: أقرئهم السلام ومُرهم فليعطــوا القرآن بخزائمهم، فإنه يحمــل على القصد والســهولة ويُجنِّبهم الجور والحزونة[٣].

والخزائم جمع خزامة وهي حلقة من الشــعر تُوضع في وترة أنف البعير يشد بها الزمام.

والمراد: أي اجعلوا القرآن مثل الخزام في أنف أحدكم فاتبعوه واعملوا به.

وهــذه الوصية من أهم الوصايا التي قيلت في القرآن، فمن ترك نفســه للقرآن ليقوده ويوجهه فســيحظى بالطريق الســهل الآمن الذي لا تشدد فيه ولا تعسف. طريق رسول الله ﷺ وصحابته الكرام.

جاء رجل إلى عبد الله بن مســعود فقال: علمني كلمات جوامع نوافع، فقال: نعم، تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتزول مع القرآن أينما زال، ومن جاءك بصدق من

(١) فضائل القرآن للفريابي (٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) ســيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابــن الجوزي (ص: ٢٥٣)، واللحــن هو الخطأ في القراءة.

(٣) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:٧٢).

صغيــر أو كبير وإن كان بعيدًا بغيضًا فاقبله منه، ومــن جاءك بكذب وإن كان حبيبًا قريبًا فاردده عليه[١].

وقال حذيفة بن اليمــان لعامر بن مطر: كيف أنت إذا أخذ الناس طريقًا واحدًا وأخذ القرآن طريقًا، مع أيهما تكون؟ قال: أكون مع القرآن وأموت معه وأحيا معه، قال: فأنت إذًا أنت، فأنت إذًا أنت[٢].

فالمطلوب مع القرآن أن يكون أمامنا، نسير وراءه كقائد وسائق يسوقنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وجنته. قال عبد الله بن مســعود: القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار[٣].

ولقد أوضح الشــعبي معنى ترك القرآن خلف الظهر، فقــال في قوله تعالى: ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]: «أما إنــه كان بين أيديهم ولكن نبذوا العمل به»، فهذا يُبين لك أن من نبذ شيئًا فقد تركه وراء ظهره[٤].

  

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:٧٤).
(٢) المصدر السابق (ص:١٤٢).
(٣) فضائل القرآن لأبي الفضل الرازي (ص:١٥٣).
(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٣١).

حالنا مع القرآن

أتعلم أخي القارئ أن القرآن الذي بين أيدينا هو القرآن ذاته الذي كان مع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وصنع منهم هذا الجيل الفريد؟

أتعلم أن الأدوات التي كانت معنا هي التي كانت معهم، من عينين وأذنين ولسان وشفتين وعقل وقلب وجوارح.

فما الذي حدث؟

لماذا لم يعد القرآن يُنتج مثل هذه النماذج؟ مع أنه قد تيسر وجوده بين المسلمين أكثر من أي وقت مضى؟!

فما من بيت من بيوت المسلمين إلا وفيه مصحف أو أكثر، وما عليك إلا أن تدير مؤشر المذياع لتستمع إلى آيات القرآن تتلى في إذاعة من الإذاعات.. لقد أصبح القرآن في عصرنا ميسرًا للقراءة أكثر من أي وقت مضى، وانتشرت الكتاتيب، وازداد حُفاظه من الرجال والنساء في كل مكان، فلماذا لا يُحيينا كما أحيا جيل الصحابة، ولماذا لا يرفعنا كما رفعهم؟

هل فقد مفعوله؟ أم ماذا حدث؟

يُجيب عن هذه التساؤلات الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ فيقول:

إن المسلمين بعد القرون الأولى، انصرف اهتمامهم بكتابهم إلى ناحية التلاوة، وضبط مخارج الحروف، وإتقان الغُنن والمدود، وما إلى ذلك مما يتصل بلفظ القرآن والحفاظ على تواتره كما جاءنا أداءً وأحكامًا -أقصد أحكام التلاوة- لكنهم

بالنسبة لتعاملهم مع كتابهم صنعوا شيئًا ربما لم تصنعه الأمم الأخرى، فإنّ كلمة (قرأت) عندما يسمعها الإنسان العادي أو يقولها تعني: أن رسالة جاءته أو كتابًا وقع بين يديه فنظر فيه، وفهم المقصود منه.

أما الأمة الإسلامية، فلا أدري بأي طريقة فصلت بين التلاوة وبين التدبر، فأصبح المسلم اليوم يقرأ القرآن لمجرد البركة كما يقولون، وكأن ترديد الألفاظ دون حس بمعانيها، ووعي لمغازيها، يُفيد أو هو المقصود.

وعندما أحاول أن أتبين الموقف من هذا التصرف أجد أنه موقف مرفوض من الناحية الشرعية، وذلك أن قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: ٢٩]، يعني الوعي والإدراك والتذكر والتدبر.. فأين التدبر؟ وأين التذكر؟ مع تلك التلاوة السطحية التي ليس فيها أي إحساس بالمعنى، أو إدراك للمقصد، أو غوص فيما وراء المعنى القريب لاستنتاج ما هو مطلوب لأمتنا من مقومات نفسية واجتماعية تستعيد بها الدور المفقود في الشهادة على الإنسانية وقيادتها إلى الخير[١].

تاريخ هجر القرآن:

والمقصود بهجر القرآن أي هجر الانتفاع به، وعدم التعرض إلى معجزته الفذة التي من شأنها أن تغير الشخص -أي شخص- لتصنع منه مؤمنًا عابدًا لله عَزَّوَجَلَّ في كل أموره وأحواله.

وتاريخ هجر القرآن يبدأ من قرون خلت[٢]؛ حيث اهتم المسلمون ببعض

(١) كيف نتعامل مع القرآن؟ للغزالي (ص: ٢٧، ٢٨).

(٢) بفضل الله تم بسط الحديث حول تاريخ هجر القرآن وأسبابه في كتاب «غربة القرآن» وكتاب «الطريق الوحيد».

جوانب العلم، وتوسعوا فيها كعلم الكلام والفقه، فوضعوا لها قواعد ثم شروحًا ثم حواشـــي ثم مختصرات، وكان هذا كله على حساب القرآن الذي بات لا يُستدعى إلا في المآتم وعند المرض وفي رمضان.

يقول الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث..

ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة..

ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين..

وكان تطور الفكر الإســـلامي على هذا النحو وبالًا على الإسلام وأهله، روى ابن عبد البر عـــن الضحاك بن مزاحم: «يأتي على الناس زمان يُعلق فيه المُصحف حتى يعشـــش عليه العنكبوت، لا يُنتفع بما فيه، وتكون أعمـــال الناس بالروايات والأحاديث»[1].

إذن فمـــا يحدث للقرآن الآن من تعامل شـــاذ وغريب ما هـــو إلا نتاج ميراث ورثناه من القرون الماضية، تحول فيها المســـلمون عن القرآن بالتدريج حتى صار إلى ما هو عليه الآن، وحين يتساءل بعضنا عن عدم قدرتنا على الانتفاع بالقرآن كما انتفع به الصحابة لا بد أن تبدأ الإجابة بتشخيص حالنا مع القرآن.

التشخيص:

الهدف الأسمى من نزول القرآن: هداية الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإصلاح قلوبهم لتصير قلوبًا سليمة، قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].

فهـــل تعاملنا مع القرآن من هذا المنطق؟ وهل بدأنا معه من هذه النقطة، وأتينا أمره من أوله؟ أم ماذا فعلنا؟ المتأمل لحالنا يجد أننا قد ابتعدنا في تعاملنا مع القرآن

---

(١) فقه السيرة للغزالي (ص: ٤٢، ٤٣).

عن الهدف الذي نــزل من أجله، وتركناه كمصدر للهداية والتوجيه والشــفاء، ثم بحثنا عن ذلك في مصادر أخرى فتشتتنا وتفرقنا.

لــم نُعط القرآن حقه في وقتنا، وعندما نقرؤه فبحناجرنا فقط، لم نُعطه الفرصة ليُشكل تصوراتنا ويُصيغ شخصياتنا ويكون المصدر الأول لثقافتنا.

يعيب بعضنا على من لم يحســن أحكام التلاوة بل قد تهتز صورته في عينيه، ولا نوجه أي نصيحة لمن لا يفقه المعاني.

قصرنا فهمنا لحديث رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[١] على تعلــم قراءته فقط، مع أن المقصد من الحديث كمــا يقول ابن تيمية: تعليم حروفه ومعانيه جميعًا، بل تعلم معانيه هو المقصود الأول بتعليم حروفه، وذلك هو الذي يزيد الإيمان[٢].

أصبح جُل اهتمامنا حين نقرأ القرآن الوصول إلى نهاية الســورة دون الاهتمام بتفهم ما نقول، بل قد ينتقل الواحد منا من ســورة إلى أخرى دون أن يشــعر، وإن سُئلنا عن الآيات التي استوقفتنا فلن نجد جوابًا.

وعندما يأتي شهر رمضان -والذي شــرفه الله بنزول القرآن فيه- يبدأ السباق فيما بيننا حول عدد ختمات القرآن التي سنختمها فيه.

ظن بعضنا أن مفهوم الانشــغال بالقرآن هو الانشغال بحفظ ومراجعة حروفه فقط دون التفقه فيه وفهم مراد الله منه، فانكب على حفظه آلاف وآلاف.

تغير مفهوم حامل القرآن لدينا، فتجد الواحد منا كما هو قبل أن يحفظ السورة من القرآن وبعد حفظها، لم يتغير أي شيء من أخلاقه أو تعاملاته.

---

(١) البخاري (٦/ ١٩٢ برقم: ٥٠٢٧).
(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٣/ ٤٠٣).

ندير مؤشر المذياع على صوت القارئ ثم نتركه ليملأ جنبات المكان ونشغل عنه بأمورنا الخاصة وكأننا لسنا المخاطبين بهذا القرآن.

لقد نبذنا كتابنا وراء ظهورنا وجعلناه أماني، كما نقل ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس وقتادة في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ ﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظًا وقراءة بلا فهم، لا يدرون ما فيها.

فماذا جنينا من وراء هذا التعامل؟

واقع الأمة الإسلامية:

القاصي والداني يدرك ما وصل إليه حال الأمة الإسلامية من ضياع وتفكك، وذل نتجرع مرارته ليل نهار.

أصبحنا تحت أقدام الكفار يفعلون بنا ما يشاءون.. صرنا في ذيل الأمم.. أذلَّ أهل الأرض.. لا قيمة لنا، ولا اعتبار لوجودنا.

تخلينا عن مصدر عزتنا فاطمأن أعداؤنا لذلك، وبلغ استهزاؤهم بنا إلى درجة أن بعض إذاعاتهم تبدأ برامجها بالقرآن لعلمهم بأننا قد نبذناه وراء ظهورنا.

وعندما ظهر شعاع الضوء وبصيص الأمل في تلك الظلمة الحالكة والذي تمثل في ظهور الصحوة الإسلامية؛ لم تعط هذه الأجيال الشابة الواعدة القرآن حقه في الفهم والعمل، ولم تتعامل معه كمصدر للهداية والتوجيه، بل تركته وبحثت عن غيره، فاختلفت المنابع، وتنوعت المشارب، فحدث ما حدث من خلاف في التصور حول القضايا المختلفة، والأمور الجوهرية، ولم نعد على قلب رجل واحد، فأنفذ الله وعده وأجرى سنته علينا حين أسأنا، كما أوفى بوعده مع الجيل الأول حين أحسنوا التعامل معه.

فبعد أن كانوا أذلاء، فقراء، جهالًا، في مؤخرة الشعوب قبل الإسلام، إذا بهم -بعد أن أحسنوا استقبال القرآن- في المقدمة، سادة الأرض ومحط الأنظار: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

أما نحن فحين تخلينا عن المصباح، وأهرقنا الدواء، والتمسنا الهدى في غير القرآن، تركنا الله عَزَّوَجَلَّ وجعلنا أذلة بعد أن كنا أعزة، وسلط علينا من كَتَب عليهم الذلة والمسكنة.. إخوان القردة والخنازير، وجعل منهم سياطًا يؤدبنا بها لعلنا نعود إليه وإلى كتابه: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨﴾ [الزخرف: ٤٨].

فهل نحن راجعون؟!!

  

الفصل الخامس

حاجتنا إلى القرآن

حاجتنا إلى القرآن

الناظـر المتفحص لأحوال الأمة الإسـلامية يجد أنها تمـر بأخطر مرحلة في تاريخها، فبعد أن كان أعداؤها يُخْفون عداوتهم ومخططاتهم ضدها، أصبحوا اليوم يجاهرون بذلك بعد أن اسـتطاعوا هزيمة المسلمين في الميادين المختلفة؛ سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية، تقودهم في ذلك الصهيونية العالمية التي تسعى سعيًا حثيثًا نحو إقامة مشروعها (إسرائيل الكبرى) والسيطرة على العالم كله بعد ذلك.

أما أبناء أمة الإسلام الذين انخدعوا في السابق بشعارات الغرب البراقة، وكانوا يعترضـون على من يطلق عليـه «نظرية المؤامرة» أو مصطلح «أعداء الإسـلام»، أصبح هؤلاء اليوم يعيشـون مع غيرهم من المسـلمين في واقعيـة المؤامرة، وما أفغانستان وفلسـطين والعراق منا ببعيد.. فجراحات المسلمين في كل مكان، ولا نـدري أنبكي على هؤلاء أم على هؤلاء أم نبكي على أنفسـنا، وعلى المجد الذي أضعناه أو الذل الذي نتجرعه بالليل والنهار.

لقد انطبق حالنا مع ما أخبر به رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الأُمَمُ كَمَـا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَـى قَصْعَتِهَا**» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْـنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّـيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِـنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ**». فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُـولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهَنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٣٧/ ٨٢ برقم: ٢٢٣٩٧)، وأبو داود (٤/ ١١١ برقم: ٤٢٩٧) واللفظ له.

التشخيص:

والأمر اللافت للانتباه أنه كلما نزلت بالمسلمين نازلة، وأصابهم جرح جديد تعالت الأصوات من هنا وهناك بأن هذا عقاب من الله عَزَّوَجَلَّ قد حاق بنا، وهذه هي الحقيقة بالفعل، فما حدث للأمة ما هو إلا تطبيق لسنن الله الحاكمة للأرض:

﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وحين بدأنا بالتغيير السلبي كان هذا الواقع الذي نشكو منه: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾** ﴾ [يونس: ٤٤].

لقد تمثل فينا قول رسولنا ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**»[1].

نعم، هذا هو التشخيص الصحيح للوضع الأليم الذي يعيشه العالم الإسلامي اليوم، فمن ارتكب الذنب لا ينبغي عليه أن يستغرب العقوبة:

﴿ **ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾** ﴾ [الروم: ٤١].

فلنبدأ بأنفسنا:

فإن كان الأمر كذلك، فإن هذا العذاب الذي نتجرعه بالليل والنهار لن يتوقف إلا إذا رجعنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وغيرنا ما بأنفسنا تغييرًا حقيقيًّا يشمل التصورات والسلوك، والسر والعلن فنكون من بعده عبيدًا لله عَزَّوَجَلَّ في كل أمورنا وأحوالنا،

(١) رواه أحمد (٨/ ٤٤٠ برقم:٤٨٢٥) ومواضع أخرى، وأبو داود (٣/ ٢٤٧ برقم: ٣٤٦٢) واللفظ له.

ويتمثل فينا قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

إن وعد الله لا يتخلف، ولقد وعد عباده بنصرتهم وتمكينهم في الأرض إن هم نصروه على أنفسهم أولًا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧].

إذن فلا بديل أمامنا إلا البدء في عملية التغيير الداخلي لذواتنا إن أردنا الفلاح لأنفسنا والعز لأمتنا.

فإن قلت: إننا جميعًا متفقون على هذا التشخيص، ولكن ما منهج هذا التغيير المنشود الذي يتفق عليه الجميع، وما الكيفية التي من خلالها يقوم هذا المنهج بعمله في ذات الإنسان فيُحدث فيه تغييرًا جذريًّا، ويعيد صياغته من جديد؟

هذه التساؤلات تتردد هنا وهناك، والكل يظن أن الأمر صعب يحتاج إلى بذل الكثير من الجهد لوضع المنهج المناسب لعملية التغيير.. إن الأمر أبسط من ذلك بكثير، فالله عَزَّوَجَلَّ، وهو الرؤوف الرحيم، لم يتركنا لنتخبط، أو لنختلف فيما بيننا حول منهج التغيير، بل أرشدنا سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إلى هذا المنهج، وبين لنا فيه طريقته في التغيير.

أعطانا المصباح الذي بنوره ينكشف لنا الطريق، وتتبدد الظلمات.. وصف لنا الدواء الذي يعالج كل ما نعاني منه من أدواء.. فماذا فعلنا بهذا المصباح وبذلك الدواء؟!

لقد طرحنا المصباح جانبًا، وأهرقنا الدواء، ثم أخذنا نبكي ونردد: أين الطريق؟
لقد انطبق حالنا مع قول الشاعر:

كالعيس فـي البيـداء يقتلها الظما والمـاء فـوق ظهورهـا محمول

كتابنا، مصدر عزنا، النور المبين، والهدى والشـفاء: أدرنا له ظهورنا وتعاملنا معه بطريقة غريبة وشـاذة، وأصبحنا لا نسـتدعيه إلا في المآتم وأوقات المرض، وشهر رمضان، وغيره من المناسبات، واكتفينا بالتعامل مع ألفاظه فقط، والنظر إلى الثواب المترتب على قراءته، وإذا أردنا الدليل على ذلك، فليسـأل كل منا نفسه: ما الهدف الذي يسـعى إلى تحقيقه حين يقرأ القرآن؟ أليـس هو إنهاء الورد وتحقيق أكبر قدر من الحسنات؟

ألهذا الهدف نزل القرآن؟

إن خيـر دليل على عدم صحة تعاملنا مع القـرآن هو واقعنا نحن، فمع وجود عشـرات بل مئات الآلاف مـن حفاظ القرآن على مسـتوى الأمة، ومع انتشـار المصاحف في كل مـكان بصورة لم تكن موجودة في العصور الأولى إلا أن الأمة لم تجنِ ثمارًا حقيقية لهذا الاهتمام الشكلي بالقرآن.

القرآن هو الحل:

لقد اهتدى الجيل الأول بنور القرآن فانصلح حاله، وساد الأرض في سنوات معدودة، وبغير هذا النور لن ينصلح حالنا، فكما قال الإمام مالك: «لا يصلح حال آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».. وما صلح أولها إلا بالقرآن.

والأمر اللافت للانتباه أن رسـول الله ﷺ قد أخبر بذلك، وأنها ستكون فتن، وأن المخرج منها الاستمسـاك بالقرآن واتباعه، وأخبر كذلك أن القرآن والسلطان سيفترقان، وأن علينا أن نكون مع القرآن.

قال ﷺ: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَـرٌ يُوشِـكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي**

فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا: كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، -فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: **وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»(١).

وعندما سأله حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أبعد هذا الخير شر؟ قال ﷺ: «**يَا حُذَيْفَةُ، تَعَلَّمْ كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ**» حتى قال ذلك ثلاث مرات، قلت: نعم(٢).

إن التمسك بالقرآن يعني أول ما يعني اتباعه واتخاذه دليلًا وقائدًا يقودنا إلى الله، قال الشعبي في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]: أما إنه كان بين أيديهم ولكن نبذوا العمل به، ويعلق أبو عبيد على قوله فيقول: «فهذا يُبين لك أن من نبذ شيئًا فقد تركه وراء ظهره»(٣).

فالمطلوب منا إذن تجاه القرآن يختلف عما نفعله.. المطلوب منا أن نكون معه كما كان الجيل الأول معه، ليفعل بنا كما فعل بهم، فالمعجزة القرآنية جاهزة للعمل ولا ينقصها سوى إزالة الحُجب التي تحول دون تعرضنا لها.

وخلاصة القول: أن تغيير هذا الواقع المرير الذي تعيشه الأمة، والذي أصبحت من خلاله تحت الأقدام، لن يتم إلا إذا حدث تغيير حقيقي في الأفراد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

هذا التغيير لن يتم بصورة جذرية إلا من خلال العودة الحقيقية إلى القرآن كمصدر للهداية والتوجيه، والشفاء والتغيير الحقيقي في كيان الإنسان، ليجعل منه مؤمنًا صادقًا قولًا وسلوكًا، سرًّا وعلانية.

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٣ برقم: ٢٤٠٨).

(٢) أصل الحديث في الصحيحين ورواه بهذا اللفظ أحمد (٣٨/ ٣١٦ برقم: ٢٣٢٨٢) والحاكم (٤/ ٤٧٨ برقم: ٨٣٣٠).

(٣) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن، (ص: ١٣١).

لماذا القرآن؟

قد يتساءل البعض: وماذا يمكن للقرآن أن يفعله؟!

إن القرآن سيفعل الكثير والكثير بعون الله عَزَّوَجَلَّ، وسيظهر أثره الحقيقي في وقت قصير شريطة حسن التعامل معه، والنجاح بعون الله في إزالة الحُجب التي تحول بيننا وبينه.

* فالقرآن -كما مر علينا- سيعيد تشكيل العقل، وبناء اليقين الصحيح فيه، ليثمر ذلك انسجام القول مع الفعل.

* والقرآن قادر -بإذن الله- على طرد الهوى وحب الدنيا من القلب، وطريقته الفريدة في ذلك: زيادته المستمرة للإيمان، وتوليده طاقة كبيرة في نفس قارئه تدفعه للقيام بالطاعات ومقاومة الشهوات والسمو فوقها.

* وبالقرآن تتحقق الذاتية والإيجابية لدى الأفراد، فالقوة الدافعة، والطاقة المتولدة من القرآن وبصورة يومية تمثل أكبر دافع للمسارعة إلى الخيرات، وتنفيذ النصائح والتوجيهات التي تلقى على المسامع لتصبح واقعًا ملموسًا، دون الحاجة إلى شدة المتابعة، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ مع صحابته الكرام، فكان يكفيه التوجيه ليسارع الجميع بالتنفيذ، فعندما بلغ عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قول النبي ﷺ في شأنه: «**نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ**»[1]، قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا.

* وعندما قال ﷺ لعلي وفاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «**أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ؟ إِذَا أَوَيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا، أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا، فَكَبِّرَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ،**

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٤٩ برقم: ١١٢٢) ومسلم (٤/ ١٩٢٧ برقم: ٢٤٧٩) واللفظ له.

وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ» وَفِي رِوَايَة: فَما تَرَكْتُهَا بَعْدُ. قيلَ: ولَا لَيْلَةَ صِفِّينَ؟ قالَ: ولَا لَيْلَةَ صِفِّينَ»(١).

❊ وبالقرآن نتحرى الصدق والإخلاص في أقوالنا وأفعالنا، فنزهد في الرئاسة وحب الظهور، وبه نكف عن تزكية أنفسنا والمباهاة بإنجازاتها، فتصبح سريرتنا أفضل من علانيتنا(٢).

❊ وسيعيد لنا القرآن الشعور بالعزة المفقودة في زمن الهزيمة النفسية.. منطلق هذه العزة: الشعور بقيمة الانتساب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وحسن الصلة به، ومبعثها كذلك الثقة به سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

❊ والقرآن يستثير كوامن العقل، ويحرره من أسر التقليد الأعمى، ويضبط هذا التحرر بضوابط الشرع. وهو أيضًا يرفع قدره، ويعرفه قيمته في الكون، فينطلق إليه ليكتشف أسراره، وينتفع بقوانين تسخيره، ليبدأ علو المسلمين من جديد في شتى المجالات ويكون لهم قصب السبق كما كانوا من قبل.

القرآن وجمع كلمة الأمة:

القرآن هو الكتاب الوحيد القادر على جمع كلمة الأمة مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فحبل الله هو القرآن كما قال ابن مسعود وغيره.

ومن وسائل القرآن في تجميع كلمة الأمة: بناؤه لوحدة التصور لدى أفرادها،

(١) رواه البخاري (٧/ ٦٥ برقم: ٥٣٦٢، ٨/ ٧٠ برقم: ٦٣١٨) ومسلم (٤/ ٢٠٩١ برقم: ٢٧٢٧).

(٢) في الفصل الثالث (القرآن والتغيير) تم عرض الكيفية التي يقوم بها القرآن لتغيير العقل والقلب والنفس.

فهو قادر -بإذن الله- على رسم خريطة الإسلام في ذهن كل مسلم بنسبها الصحيحة دون تفريط أو إفراط، لتنطلق الأعمال بعد ذلك منسجمة مع هذا التصور، فتتوحد الجهود، ويقل الخلاف -إن لم يتلاشَ- في الأمور الجوهرية، ويضيق في الأمور الفرعية ليصبح خلافًا محمودًا مرغوبًا يهدف إلى رفع الحرج عن الناس.

يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إننا نعتقد -بالدراسة الطويلة- أن هذا القرآن فيه غناء في بيان الحقائق التي يقوم عليه التصور الإسلامي، فلا يحتاج إلى إضافة من خارجه في هذا البيان.

ويستطرد قائلًا: ونحن نحب أن يتعود قارئ هذا البحث أن يلجأ إلى القرآن وحده، ليجد فيه تبيانًا لكل شيء[1].

من هنا يتبين أن الأمة الإسلامية بشبابها وشيوخها.. برجالها ونسائها لو اتجهت إلى القرآن وتجردت له، وأصغت سمعها إليه، وتعاملت معه على أنه كتاب الهداية الشاملة الكاملة التامة، فإن هذا من شأنه أن ينشئ قاسمًا مشتركًا بين أفرادها للتصور الصحيح لمفردات الحياة..

عندئذٍ لن نختلف فيما بيننا حول النظرة إلى الدنيا أو المال أو الأولاد.. ولن نجادل كثيرًا حول مفهوم الجهاد والدعوة إلى الله.. سنجتمع على الكليات، ونعرف كيف نرتب الأولويات.

سمات المنهج القرآني:

مع هذه القدرة الفذة للقرآن في التغيير، فإن طريقته ومنهجه سهل وميسر للجميع كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧ ﴾ [القمر: ١٧].

(١) مقومات التصور الإسلامي ص (٨٥).

لا يحتاج إلى طقوس خاصــة أو أماكن خاصة للتعامل معه، فيكفي أن تتوضأ وتمد يدك إليه لتقرأه في أي وقت وأي مكان طاهر.

منهج ينســجم مع الطبيعة البشــرية، وما فيها من ضعف واحتياجات، فتراه لا يُصادم الفطرة ولا يدعو من يتمسك به إلى ترك الدنيا، بل يدفعه إلى حُسن التعامل معها، فأهل القرآن هم أسعد الناس في الدنيا والآخرة.

ومن سمات التغيير القرآني كذلك أنه تغيير متكامل لا يهتم بجانب على حساب آخر، فكما يهتم بحسن علاقة المرء بربه؛ يهتم كذلك بحسن علاقته مع كل من حوله.

دفع شبهة:

ليــس معنى القول بأن القرآن هو الحل أن يتحرك كل واحد بمفرده مع القرآن، فواقع الأمة يســتدعي التحرك الجماعي لمواجهة مشروع الإبادة ومحو الشخصية الذي يعمل أعداؤنا على تنفيذه.

إن أعداءنا قد اجتمعــوا علينا، وتوحدت كلمتهم فــي القضاء على مقومات حضارتنا فليس أقل من أن نكون مثلهم في توحدنا واجتماع كلمتنا:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٣].

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن حجم الانحراف الذي حدث للأمة أكبر بكثير مما يتصوره البعض.. كل هذا يستدعي تضافر الجهود، والتحرك الجماعي لا التحرك الفردي الذي يُبعثر الجهود ويشتتها.

ومن ناحية ثالثة فإن الواحد بمفرده لن يسعه أن يتحرك بالقرآن منفردًا منعزلًا؛ لأن آيات القرآن نفسها ستلاحقه بوجوب التحرك الجماعي وبناء المجتمع الإيماني والانصهار في بوتقته.

هذا التحرك الجماعي يحتاج إلى جيل يقود الأمة لمواجهة ما يُراد لها، ويسعى للتمكين لدين الله في الأرض وإعادة المجد الإسلامي من جديد.

فإن قال قائل: فأين موقع القرآن من هذا الجيل؟

الجواب بأن القرآن هو منهج هذا الجيل في التغيير: تغيير ما بالنفوس، وإقامة الإسلام داخلها، وقيادة الناس بالقرآن.

يقول الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أقيموا دولة الإسلام في قلوبكم تقم على أرضكم.

لا بد أن يتشبع هذا الجيل بالقرآن، فيملك عليه فكره وخواطره، ويستضيء قلبه بنوره، فيجد فيه الناس النموذج والقدوة، فيثقون به ويسيرون خلفه.

ولكن هل معنى هذا ترك القراءة والاطلاع في مؤلفات العلماء والباحثين؟!

ليس معنى الاهتمام بالقرآن واتخاذه منهجًا للتغيير أن نترك كتابات العلماء وما فيها من خير، ولكن المقصد ألا تكون قبل القرآن، بل خادمة له، تدور في فلكه.. توسع المدارك، وتفتح الآفاق لفهمه أكثر وأكثر، على أن يكون الجهد والوقت الأكبر منصرفًا للقرآن؛ والقراءات الأخرى على هامش الوقت.

ويأتي على رأس تلك العلوم: السنة النبوية المطهرة والتي تلي القرآن مباشرة في الأهمية، فهي شارحة له، مبينة لكثير مما أُجمل فيه.. بل هي الوحي الثاني:
﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل:٤٤]

أما فروع العلوم الإسلامية الأخرى فلها أثر فعال في تكوين الفرد إذا ما تم ربطها بالقرآن، ومع ذلك فإن من الأفضل تخصيص أكبر وقت للقرآن وبخاصة في البداية؛ ليأخذ فرصته في إعادة تشكيل العقل وبناء اليقين الصحيح فيه، وتحرير القلب من الهوى، وتمكين الإيمان منه، وترويض النفس على لزوم الصدق والإخلاص.

حاجة الفرد إلى القرآن:

إن كان القرآن هو الحل ونقطة البداية التي ينبغي أن نبدأ بها على مستوى الأمة للخروج من هذا النفق المظلم الذي تسير فيه، فإن المسلم كذلك بحاجة ماسة إلى القرآن على مستواه الفردي في كل زمان ومكان.. في ليله ونهاره، وحله وترحاله، وحتى بعد أن يعود للمسلمين عزهم ومجدهم بإذن الله، وذلك لدواعٍ كثيرة.. ومن ذلك:

أولًا: تحقيق الربانية:

فمن معاني الربانية: القرب من الله، وحسن الصلة به، وطريق التحقق بها يستلزم معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، فعلى قدر هذه المعرفة تكون عبودية القلب له سبحانه من حب وخشية ورجاء وتوكل وإنابة وإخلاص.

والطريق السهل الآمن لتلك المعرفة هو القرآن، فمن أهم سماته أنه كتاب تعريف بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يكتفي بذلك بل إنه يُنشئ في القلب العبودية المصاحبة لهذه المعرفة، فالقرآن هو أفضل وسيلة لتحقيق الربانية، فهو حبل الله المتين الممدود بين السماء والأرض، من تعلق به ارتفع قلبه إلى السماء وصار من عباد الله المقربين.

ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿ **وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩** ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وفي هذا المعنى يقول خباب بن الأرت لجار له: يا هناه، تقرب إلى الله بما استطعت، فإنك لن تقرب إليه بشيء أحب إليه من كلامه[١].

---

(١) رواه الحاكم (٢/ ٤٧٩ برقم: ٣٦٥٢).

وفـي الترمذي عن أبي أمامة مرفوعًا: «**مَا تَقَرَّبَ الْعِبَـادُ إِلَى اللَّهِ بِمِثْلِ مَا خَرَجَ مِنْهُ**»(١).

ثانيًا: تحقيق السعادة:

السعادة هي سكون النفس، وطمأنينتها، وهدوء الخواطر لديها، فلا تفكير في ماضٍ يبعث على الحزن، ولا تطلع لمســتقبل يزيد الهم، والسعادة بهذا المعنى لا يمكن أن تأتي للإنســان من خارجه، بل إن مبعثهــا من داخل ذاته كنتيجة من نتائج هدايته للسلام مع نفسه، ومع كل الدوائر التي يتحرك فيها.

من هنا يأتي دور القرآن..

يقول تعالى: ﴿**فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

قال ابْنُ عَبَّاسٍ: فَضَمِــنَ اللَّهُ لِمَن اتبع الْقُرْآنَ وعَمِلَ بما فيه ألا يَضِلَّ في الدُّنيا ولا يشقى في الآخرة(٢).

وفي الحديث عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْــعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُــولُ اللهِ ﷺ: «**مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا**»(٣).

---

(١) رواه أحمد (٣٦/ ٦٤٤ برقم: ٢٢٣٠٦) والترمذي (٥/ ١٧٦ برقم:٢٩١١) وقال حديث غريب.

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ٨٣٦ برقم: ٣٤٧٨١).

(٣) رواه أحمد (٦/ ٢٤٦ برقم: ٣٧١٢) وابن حبان (٣/ ٢٥٣ برقم: ٩٧٢).

يقــول ابن القيم في تعليقه على هذا الحديث: ولمَّــا كان الحزن والهم والغم يضاد حياة القلب واســتنارته؛ ســأل أن يكون ذهابها بالقرآن فإنها أحرى ألا تعود، وأمــا إذا ذهبت بغير القرآن مــن صحة أو دنيا أو جاه أو زوجــة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك(١).

فكلما ازداد اقتراب المرء من القرآن، ازداد شعوره بالأمان والسكينة.

قــال عبد الله بن مســعود: إن هذا القرآن مأدبة اللــه عَزَّوَجَلَّ فمن دخل فيه فهو آمن(٢).

ثالثًا: ومن دواعي حاجة المسلم إلى القرآن: زيادة الإيمان:

يمثل الإيمان جهاز المناعة لقلب الإنسان، ففي حالة زيادته يستطيع القلب أن يقاوم ضغوط النفس فيما تطلبه من شــهوات، وفي حالــة نقصانه يضعف القلب ويستسلم لها في كثير من الأحيان.

والشــهوات تُحيط بالإنســان ليلًا ونهارًا، وبخاصة في عصــر كالذي نحيا فيه، والمسلم بحاجة دائمة لزيادة إيمانه، وأفضل طريق لذلك هو القرآن بتذكرته المستمرة، وبمواعظه البليغة التي تضرب بقوة على المشاعر فتؤججها وتوجهها وتسمو بها فوق الشهوات.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢** ﴾ [الأنفال: ٢].

فالقرآن إذن منبع عظيم من منابع الإيمان يفيض على كل من يَرِدُهْ.

---

(١) الفوائد لابن القيم (ص: ٤٠ برقم: ٥٩)

(٢) فضائل القرآن للفريابي (ص: ١٦٦).

قال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]. قال: هو القرآن، ليس كلهم رأى النبي ﷺ[١].

والقرآن مُقوٍّ للإرادة والعزيمة يمنح صاحبه طاقة هائلة، وما عليه فقط إلا أن يُحولها إلى حركة إيجابية فيما يُحبه الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول ابن القيم: فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، وتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر الناس عليها فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية، كما يعود البدن بصحته وصلاحه إلى الحال الطبيعي، فيصير بحيث لا يقبل إلا الحق، كما أن الطفل لا يقبل إلا اللبن الذي تعوّد عليه[٢].

رابعًا: ومن دواعي العودة الحقيقية للقرآن: التذكر الدائم لحقائق الإيمان وجوانب الهداية:

مع استمرارية التعامل الصحيح مع القرآن يظل المسلم في حالة دائمة من اليقظة والتذكر لحقائق الإيمان وجوانب الهداية..

ففي كل مرة نقرأ فيها القرآن سنجد آيات تُعرفنا بالله عَزَّوَجَلَّ وبحقوقه علينا، وحقوق بعضنا على بعض، وبالرسول ﷺ وبالرسالة، وتعرفنا بأنفسنا وجوانب ضعفها وكيف نزكيها، وسنجد كذلك آيات تُذكِّرنا بعداوة الشيطان وكيده المستمر لنا، وفي كل جلسة مع القرآن سنجد قصة وجودنا على الأرض تطل علينا وتُذكرنا بالدنيا وقيمتها، وبحقيقة وجودنا فيها ومدى علاقتنا بمفرداتها من زوجة وأولاد ومال و...إلخ.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ٥٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧٥).

وقلما سـنخرج بعد لقائنا بالقرآن دون تذكر بيوم الحساب وأحداثه، وبالجنة ونعيمها، والنار وألوان عذابها.

أما السـنن والقوانين الإلهية التي يحكم الله بها الحياة فما أكثرها في القرآن، وكذلـك الحديث عن المكذبين وما يُثيرونه من شـبهات مع تشـخيص دوافعهم للتكذيب والمآل الذي ينتظرهم إن استمروا على ذلك.

وفي مساحة ضخمة من القرآن سـنجد قصص السابقين من مؤمنين وكافرين يقصها الله علينا، ويكررها في مواضع كثيـرة؛ لنأخذ منها العبرة ونربط بينها وبين واقعنا، فنزداد يقينًا بأن الباطل إلى زوال والعاقبة للمتقين.

خامسًا: تحصيل العلم النافع:

يقول تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

فمن أراد العلم -كما يقول ابن مسعود- فليتفكر في القرآن[١].

ومن أجلِّ العلوم التي يختص بها القرآن: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ.

يقول ابن رجب: فالعلم النافع ما عرَّف العبد بربه ودلَّه عليه، حتى عرفه ووحده وأنِس به، واستحيا من قربه وعَبَده كأنه يراه.

وكان السلف يقولون: إن العلماء ثلاثة: عالم بالله عالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمره، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله.

فأصل العلم العلم بالله الذي يوجب خشـيته ومحبته والقرب منه، والأنس به والشوق إليه.

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:٩٦)، ونص الأثر: عن عبد الله بن مسـعود قال: «إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن فإن فيه خبر الأولين والآخرين».

وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عن معروف الكرخي: معه أصل العلم، خشية الله.

ثم يتلــوه العلم بأحكام الله، وما يحبه ويرضاه مــن العبد من قول أو عمل أو حال أو اعتقــاد، فمن تحقق بهذين العلمين كان علمه علمًا نافعًا، وحصل له العلم النافع والقلب الخاشــع والنفس القانعة والدعاء المسموع، ومن فاته العلم النافع وقع في الأربع التي استعاذ منها النبي ﷺ وصار علمه وبالًا، وحجة عليه، فلم ينتفع به[١].

ففي صحيح مســلم عن زيد بن أرقم أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَاب لَهَا**»[٢].

فمن أراد العلم النافع فليبدأ بالقرآن ليعرف ربه من خلاله فيتحقق قلبه بالخشوع والانكسار له ســبحانه، فإن انتقل بعد ذلك إلى تعلم أوامر الله وأحكامه صار من العلماء الربانيين.

قال كعب: عليكم بالقرآن فإنه فهم العقل ونور الحكمة وينابيع العلم، وأحدث الكتب بالرحمن عهدًا[٣].

ويقول مجاهد: استفرغ علمي القرآن[٤].

فمن ينشغل بالقرآن، ويوقف له حياته؛ لن يندم على ذلك لحظة من اللحظات.

---

(١) فضل علم السلف لابن رجب (ص: ٥٠، ٥١).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٨٨ برقم: ٢٧٢٢).

(٣) سنن الدارمي (٤/ ٢٠٩٥ برقم: ٣٣٧٠)

(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٠١).

يقول القرطبي: فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري[١].

وهذا الإمام ابن تيمية يُحال بينه وبين كتب العلم في محبسه بالقلعة فيتفرغ للقرآن، ليقول عن هذه التجربة: قد فتح الله عليِّ في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء كان الكثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن[٢].

سادسًا: العصمة من الفتن:

في هذا الجو المظلم الذي نعيش فيه، ومع ازدياد الفتن؛ يحتاج المرء إلى ما يستمسك به ويأخذ بيده إلى بر الأمان، وهنا يأتي دور القرآن، فعندما سأله حذيفة ابن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أبعد هذا الخير شر؟ قال ﷺ: «**يَا حُذَيْفَةُ، تَعَلَّمْ كِتَابَ اللَّهِ وَاتَّبِعْ مَا فِيهِ**» حتى قال ذلك ثلاث مرات، قلت: نعم[٣].

ولقد رأى حذيفة في يوم من الأيام كثرة من الناس فقال لأحد التابعين وهو عامر بن مطر: يا عامر بن مطر، كيف أنت إذا أخذ الناس طريقًا واحدًا، وأخذ القرآن طريقًا، مع أيهما تكون؟ قلت: أكون مع القرآن وأموت معه وأحيا معه. قال: فأنت إذًا أنت، أنت إذًا أنت[٤].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/ ٦) (المقدمة).
(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد الزبيدي في مقدمة كتاب الإيمان (ص: ٢٠، ٢١).
(٣) أصل الحديث في الصحيحين ورواه بهذا اللفظ أحمد (٣٨/ ٣١٦ برقم: ٢٣٢٨٢) والحاكم (٤/ ٤٧٨ برقم: ٨٣٣٠) واللفظ له.
(٤) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٤٢).

فعلى قدر تمسكنا بالقرآن واتصالنا الدائم به تكون نجاتنا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

قال رسول الله ﷺ: **«أَبْشِرُوا، فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَهْلِكُوا، وَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا»**(١).

إن الفتن التي تمر بنا في هذا العصر كقطع الليل المظلم، تجعل الحليم حيران، وليس أمامنا من عاصم إلا الله وحبله المتين فلنسارع بالتعلق به.

قال ابن مسعود: إن هذا الصراط محتضر تحضره الشياطين: يا عبد الله، هذا الطريق، هلم إلى الطريق.. فعليكم بالقرآن فإنه حبل الله(٢).

ومن شأن القرآن كذلك أن يُبعد عن أهله أي بوادر لليأس مهما اشتد الظلام وادلهمت الخطوب، فهو يثبت القلوب على الحق ويربط عليها، كما قال تعالى: ﴿ **قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ١٠٢** ﴾ [النحل: ١٠٢].

سابعًا: ومن دواعي العودة للقرآن: حسن التعامل مع متغيرات الحياة:

ما من يوم تُشرق شمسه إلا وللحياة فيه جديد، وليس من عادتها أن تظل صافية لإنسان ما أبد الدهر، ومع كثرة متغيراتها تزداد الحاجة إلى وجود دليل ناصح، أمين، يُعرفنا كيف نواجه تلك المستجدات.. وهنا يأتي دور القرآن، فما من مشكلة يتعرض لها الفرد إلا وفي القرآن حلها، كما قال ابن عباس: لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في القرآن.

فعند المصائب والشدائد تجده يربت على كتف صاحبه، ويدعوه إلى الصبر

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٢٥ برقم: ٣٠٠٠٦) وابن حبان في الصحيح (١/ ٣٢٩ برقم: ١٢٢)، والطبراني (٢٢/ ١٨٨) واللفظ له [بلى].

(٢) فضائل القرآن لابن الضريس، ص (٥٠).

والاحتساب، ويقص عليه نماذج لأناس أصابتهم مصائب أشد من مصيبته، فصبروا على ما أصابهم حتى جاءهم الفرج من حيث لم يحتسبوا.

والقرآن يوجه صاحبه نحو المعالــي فيُهوِّن عليه، ويُصغِّر في عينيه ما يتهافت عليه الناس، فيجعله دائمًا في حالة من الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على العطاء.

ثامنًا: من دواعي العودة كذلك: الوصول إلى صداقة القرآن وشفاعته:

كلما اقترب المسلم من القرآن وتوثقت علاقته به؛ فسيجد أنه قد تكونت لديه علاقة خاصة بســور القرآن، فهو ينتظر بلوغ سورة الأنعام لتزيده حُبًّا لله، ويتلهف لقراءة ســورة الأنفال ليزداد شعوره بالعزة، ويشتاق لســورة يوسف لتكون له نعم السلوى.

يقول الأســتاذ ســيد قطب: هكذا عُدت أتصور ســور القرآن، وهكذا عدت أحُسها، وهكذا عدت أتعامل معها بعد طول الصحبة، وطول الألفة، وطول التعامل مع كل منها وفق طباعه واتجاهاته وملامحه وسماته.. وأنا أجد في سور القرآن تبعًا لهذا وفرة بســبب تنوع النماذج، وأُنسًا بسبب التعامل الشــخصي الوثيق، ومتاعًا بسبب اختلاف الملامح والطباع والاتجاهات والمطالع..

إنهــا أصدقاء.. كلها صديــق.. وكلها أليف.. وكلها حبيــب.. وكلها ممتع.. وكلهــا يجد القلب عنده ألوانًا من الاهتمامات طريفــة، وألوانًا من المتاع جديدة، وألوانًا من الإيقاعات، وألوانًا من المؤثرات تجعل له مذاقًا خاصًّا وجوًّا منفردًا..

ومصاحبة الســورة من أولها إلى آخرها رحلة... رحلة في عوالم ومشــاهد، ورؤى وحقائــق وتقريرات وموحيــات، وغوص في أعماق النفوس واســتجلاء

لمشــاهد الوجود.. لكنهــا كذلك رحلة متميــزة المعالم في كل ســورة ومع كل سورة[١].

وصداقة القرآن للعبد بعد طول الصحبة لا تقتصر على حياته الدنيوية فقط، بل تتعداها إلى حياة البرزخ فيكون القرآن أنيسًا له في قبره أيضًا.

روى الترمذي عن ابن عباس قــال: ضَرَبَ بَعْضِ أَصْحَاب النَّبِيِّ ﷺ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لَا يَحْسَــبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَان يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ وَأَنَا لَا أَحْسَبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَــانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ (الْمُلْكُ) حَتَّى خَتَمَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[٢].

أما يوم القيامة، فللقرآن دور آخر؛ إذ إنه يأتي شــفيعًا لصاحبه عند ربه، ويرتقي به في درجات الجنة.

فَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ**»[٣].

  

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٢٤٣).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ١٦٤ برقم ٢٨٩٠) وقال: حديث غريب.

(٣) أخرجه مسلم (١/ ٥٥٣ برقم: ٨٠٤).

الفصل السادس

عقبات في طريق العودة

عقبات في طريق العودة

١- إن طريق العودة الصحيحة إلى القرآن كهادٍ إلى الله وإلى صراطه المستقيم.. سهل ميسر -بإذن الله- إذا ما استطعنا أن نجتاز العقبات التي وضعت أمامنا خلال القرون الأخيرة، وأن نغير بعض الموروثات التي ورثناها، وكذلك التوقف عن القيام بالممارسات الخاطئة، وتحويل مسار الممارسات المختلطة[1].

٢- وفي هذا الفصل سيكون الحديث -بعون الله- عن أهم العقبات التي تقف في طريق العودة وكيفية التعامل معها.

وهي على سبيل الإجمال:

١- الاهتمام بالشكل فقط.

٢- الخوف من تدبر القرآن.

٣- مفهوم التدبر وطبيعته.

٤- ضرورة ختم القرآن في مدة محددة.

٥- أمراض القلوب.

٦- مفهوم الانشغال بالقرآن.

---

(١) بفضل الله تم بيان أهم الممارسات الخاطئة التي ينبغي التوقف عنها في كتاب «غربة القرآن»، وبخصوص الممارسات المختلطة فقد تم ذكرها بشيء من التفصيل في كتاب «الطريق الوحيد».. ولله الفضل والمنة..

العقبة الأولى:

الاهتمام بالشكل فقط

والمقصد من ذلك هو قصر التعامل مع القرآن على ألفاظه وحروفه فقط.

ومن مظاهر تلك العقبة:

❋ الاهتمام الشديد بإتقان أحكام التلاوة والتعمق فيها، دون أن يصاحب ذلك اهتمام مماثل بالمعنى.

❋ ومنها: التركيز عند قــراءة القرآن على الانتهاء مــن أكبر قدر من الآيات، وبخاصة في شــهر رمضان، حيث التســابق على عدد الختمــات، دون أي اهتمام بالمعنى والتأثر به.

❋ ومنها: الحرص على الإسراع في حفظ ألفاظ القرآن، وبذل الوقت والجهد في ذلك، دون معرفة معاني الآيات، وما فيها من إيمان، وما تدل عليه من عمل.

❋ وغير ذلك من المظاهر التي تدور حول قصر الانتفاع بالقرآن على الناحية الشكلية فقط.

ومما يعين على تجاوز هذه العقبة: معرفة الهدف والمقصد الذي من أجله نزل القرآن، ثم ليســأل كل منا نفســه بعد ذلك: هل يمكننا تحقيق هذا المقصد بمجرد تلاوة ألفاظه بحناجرنا فقط؟! فكما قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيــان لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمر مــن أوله. قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدبر

آياته إلا اتباعه بعلمه. أما -والله- ما هــو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: والله لقد قرأت القرآن كله ما أسقطت منه حرفًا.. وقد والله أسقطه كله، ما رُئي القرآن له في خلق ولا عمل، وإن أحدهم ليقول: والله إني لأقرأ السورة في نفس واحد ما هؤلاء بالقرّاء ولا العلمــاء ولا الورعة.. متى كان القرّاء يقولون مثل هذا؟ لا كثَّر الله في الناس مثل هذا(١).

إذن فاجتياز هذه العقبة يســتدعي منا أن نأتي أمر القــرآن من أوله، بمعنى أن يكــون همنا في التعامل معــه كيفية الانتفاع به كهادٍ إلى الصــراط، ومصدر متفرد للتغيير، وأما إتقان تلاوته والمداومة عليها وحفظه فما هي إلا وســائل معينة على تحقيق هذا المقصد.

قــال الفضيل بن عياض: إنما نزل القرآن ليعمل به، فاتخذ الناس قراءته عملًا، قيل: كيف العمل به؟ قــال: أي: ليحلوا حلاله ويحرموا حرامه، ويأتمروا بأوامره، وينتهوا عن نواهيه، ويقفوا عند عجائبه(٢).

بركة القرآن:

إن بركة القرآن تكمن فيما يحمله من معانٍ عظيمة تنير الطريق وتشفي الصدور وتُســعد العامل بها في الدنيا والآخرة... فالمعنى إذًا هو المقصود من تلاوته، وما الترتيل والتدبر إلا وسائل لتحقيق ذلك.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن المعلــوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك(٣).

(١) الحوادث والبدع للطرطوشي (٢٠٩، ٢١٠).
(٢) اقتضاء العلم العمل (ص:٧٥).
(٣) مقدمة في أصول التفسير (ص:٧٥).

ويقول أيضًا: ولا يخفى على أولي الألباب أن المقصود بنزوله اتباعه، والعمل بما فيه؛ إذ العاملون به هم الذين جُعلوا أهله، وأن المطلوب من تلاوته تدبره، وفهم معانيه؛ ولذلك أمر الله بترتيله والترسل فيه، ليتجلى أنوار البيان من مشارق تبصرته، ويتحلى بآثار الإيمان من حقائق تذكرته[١].

ويؤكد على هذا المعنى الأستاذ حسن الهضيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول: ليست العبرة في التلاوة بمقدار ما يقرأ المرء، وإنما العبرة بمقدار ما يستفيد، فالقرآن لم ينزل بركة على النبي ﷺ بألفاظه مجردة عن المعاني، بل إن بركة القرآن في العمل به، واتخاذه منهجًا في الحياة يضيء سبيل السالكين. فيجب علينا حين نقرأ القرآن أن يكون قصدنا من التلاوة أن نحقق المعنى المراد منها، وذلك بتدبر آياته وفهمها والعمل بها[٢].

ختمتان للقرآن!!

بناء على ما سبق، يتأكد أنه ليس هناك أي مبرر لمن يطالب بأن تكون هناك ختمتان للقرآن: ختمة قراءة لإنهاء الورد دون النظر للمعنى، وختمة للتدبر والتي يمكن أن تستغرق عدة سنوات.

ولعل ما قيل في الصفحات السابقة، مع التركيز على معرفة الهدف الأسمى من نزول القرآن ومدى حاجتنا إليه على مستوى الأمة والفرد... لعل هذا كله يرد على من يطرح هذا التصور.

فأي هدف سيسعى القارئ إلى تحقيقه وهو يقرأ بدون تدبر؟ وما النفع الذي سيعود عليه من ذلك؟ وهل ستحقق له قراءة الحناجر التغير المنشود الذي ينتظره من القرآن؟

---

(١) قاعدة في فضائل القرآن (ص: ٥٤).

(٢) مقالات الإسلاميين في رمضان (ص: ٤٢٦).

لو كانت القراءة لمجرد الثواب المترتب عليها فقط؛ لكان من الأولى أن نقوم بأعمال أكثر ثوابًا من قراءة القرآن، مثل ما رواه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَالَ فِي سُوقٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ،وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ، وَبَنَى لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**»[(١)].

ولسنا نعني بذلك التقليل من شأن الثواب المترتب على قراءة القرآن، بل نعني إعادة النظر في طريقة تعاملنا معه، فقيمة القرآن وبركته الحقيقية تكمن في معجزته الفذة، وتأثيرها المتفرد، وفي معانيه، ولأن اللفظ وسيلة لإدراك المعنى كان التوجيه النبوي بالإكثار من تلاوته، وتحفيز الناس على ذلك من خلال الثواب الكبير المترتب على قراءته.

ومثال ذلك -ولله المثل الأعلى: الأب الذي يرصد مكافأة لابنه إن استمر في المذاكرة عدة ساعات.. هو بالتأكيد لا يقصد مجرد جلوسه على المكتب والنظر في الكتب دون فهم ما تحتويه، بل هدفه من وراء ذلك تشجيع ابنه على المذاكرة بذهن حاضر ليتحقق له النجاح.

فإذا ما نظرنا إلى الهدف الأسمى من نزول القرآن، وربطنا بينه وبين ما رتب الشارع الحكيم على قراءته من ثواب عظيم، لوجدنا أن من أهداف هذا الثواب تشجيع المسلمين على دوام الاقتراب منه حتى يهتدوا بهداه، ويستشفوا بشفائه... أما أن نقترب منه وليس لنا هدف إلا الثواب، دون الالتفات إلى التعرض لمعجزته، وإلى المعنى المقصود من الخطاب، فمما لا شك فيه أننا بذلك التعامل الشكلي

(١) رواه أحمد (١/ ٤١٠ برقم:٣٢٧) والدارمي (٣/ ١٧٢٦ برقم: ٢٧٣٤) وابن ماجة (١/ ٧٥٢ برقم: ٢٢٣٥) واللفظ لأحمد والترمذي (٥/ ٤٩١ برقم: ٣٤٢٨) وقال: غريب.

سنخسر كثيرًا، ولن يحقق القرآن فينا مقصوده.

ولعل السبب من وراء مطالبة البعض بختمة للتدبر وختمة لإنهاء الورد هو استشعارهم صعوبة التدبر، وعدم القدرة على تجاوز عدة آيات في لقائهم مع القرآن... فهذه عقبة أخرى سيتم تناولها بمشيئة الله في الصفحات القادمة.

دفع شبهة:

فإن قال قائل: ولكننا قرأنا أن فلانًا من السلف كان يختم القرآن في الليلة الواحدة مرة ومرتين، وفلانًا كان يختم القرآن في رمضان ستين ختمة، فلماذا لا نفعل مثلهم؟!

هذه الأخبار -لو صحت- فلا يمكن أن نستدل بها على جواز اتخاذ هذه الطريقة كوسيلة نحقق بها مقصود القرآن: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

فنصوص القرآن واضحة في أهمية تدبره عند قراءته أو الاستماع إليه ليكون التدبر وسيلة للفهم والتأثر ثم العمل: ﴿ **كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩].

ولأن فهم مقصود الخطاب لا بد أن يلازم قراءة القرآن، كان توجيه الرسول ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص بألَّا يختم القرآن في أقل من ثلاث معللًا ذلك بقوله ﷺ: «**لَا يَفْقَهُهُ مَنْ يَقْرَؤُهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثٍ**»(١).

والأمر الآخر أننا في هذه الصفحات نتحدث عن كيفية الانتفاع بالقرآن كهادٍ إلى الله وإلى صراطه المستقيم وكمصدر متفرد للتغيير، ومما لا شك فيه أن تحقيق

---

(١) رواه أحمد (١١/ ١٠٤ برقم: ٦٥٤٦) وأصله في الصحيحين.

هذه الأهداف يستلزم القراءة الهادئة المتأنية المسترسلة والاجتهاد في رفع الحُجب عن قلوبنا لتتعرض لمعجزته.

الوسائل والغايات:

ومما يلحق بهذه العقبة قول البعض: بأن الله عَزَّوَجَلَّ تعبدنا بالوسائل، ولم يطلب منا النظر للأهداف والمقاصد، فمن يقرأ بألفاظه فقط، دون النظر لمقصد نزوله فسيصل إليه دون تكلف، وكذلك فإنه بمجرد الصوم والامتناع عن الطعام والشراب سيتحقق مقصود الصوم، وكذلك الصلاة وسائر العبادات.

فإن كان الأمر كذلك؛ وأن مجرد قراءة القرآن بألفاظه فقط دون تدبر سيحقق لصاحبه الهدف الذي نزل لأجله القرآن، فلماذا إذن فُضلت سور عن سور مثل سورة الإخلاص والتي تُعد قراءتها بثلث القرآن.

هل لألفاظها فقط كان التفضيل، أم بما تحمله من معانٍ عظيمة؟!! وهل من قرأها بلسانه فقط سيحقق المقصد من تفضيلها؟!

ولو كان الأمر كذلك لاستوى المصلون في درجاتهم عند الله طالما حققوا شروط وواجبات الصلاة بأجسامهم دون قلوبهم.

ألم يقل رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلاَّ عُشْرُ صَلاَتِهِ، تُسْعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا**»؟(١).

وكذلك الدعاء.. فما قيمة رفع اليدين بالدعاء والقلب غافل لاهٍ؟!

يقول رسول الله ﷺ: «**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»(٢).

(١) مسند الإمام أحمد (٣١/ ١٧١ برقم: ١٨٨٧٩) وأبو داود (١/ ٢١١ برقم: ٧٩٦) واللفظ له.
(٢) مسند الإمام أحمد (١١/ ٢٣٥ برقم:٦٦٥٥)، ورواه الترمذي (٥/ ٥١٧ برقم:٣٤٧٩) واللفظ له وقال: غريب.

ويذكرنا القرآن بأهمية تحصيل التقوى في الحج كمقصد أساسي له.. قال تعالى: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

وغير ذلك من الأدلة التي تحثنا على تحري الخشوع والتقوى وحضور القلب مع العبادات وإلا ضاع جهد صاحبها، قال رسول الله ﷺ: «**رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ، وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ**»[(١)].

وفوق هذا كله؛ فخير دليل على عدم صحة هذا القول هو الواقع، فنحن نقرأ القرآن منذ سنوات وسنوات وختمناه مرات ومرات، وكان كل همنا الانتهاء من الورد أو السورة دون الالتفات إلى المعنى... فماذا غيَّر القرآن فينا؟

ويؤكد على هذا المعنى ابن القيم فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح من غير حضور ولا مراقبة، وإقبال على الله: قليل المنفعة، دنيا وأخرى.. فإنه -وإن كثر- متعب غير مفيد، فهكذا العمل الخارجي القشوري بمنزلة النخالة كثيرة المنظر قليلة الفائدة. فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ما عقل منها[(٢)].

ويقول: فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها. وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب. فتكون صورة العملين واحدة. وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض. والرجلان يكون مقامهما في الصف واحدًا وبين صلاتهما كما بين السماء والأرض[(٣)].



(١) رواه الطبراني في الكبير عن ابن عمر (١٢/ ٣٨٢ برقم: ١٣٤١٣).
(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص: ١٥٣).
(٣) المصدر السابق (ص: ١٨٨).

العقبة الثانية:

الخوف من تدبر القرآن

ثاني تلك العقبات: (الخوف من تدبر القرآن)، فمبدأ الدخول إلى عالم القرآن بتدبره وتفهمه، والعمل بمقتضاه، يُشكِّل عقبة عند البعض، ومبعث خوف هؤلاء إما لاستشعارهم عدم أهليتهم لذلك، أو خوفهم من الوقوع تحت طائلة حديث رسول الله ﷺ: «.. **وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[1].

أما شعور البعض بعدم أهليته لتدبر القرآن فهذا من تلبيسات الشيطان ليصرفنا عن مصدر السعادة والهدى، فالقرآن لا يخاطب فئة من الناس، بل هو للرجل والمرأة، والعالم والأمي، والعربي والأعجمي.. إنه خطاب للعامة والخاصة: ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا** ①﴾ [الفرقان: ١].

ولو كان هذا الكتاب لا يخاطب إلا العلماء ما طالبنا الله عَزَّ وَجَلَّ بتدبره.

يقول القرطبي في قوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

يقول: ودلت هذه الآية وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، على وجوب التدبر في القرآن ليُعرف معناه. فكان في هذا رد

(١) رواه أحمد (٣/ ٤٩٦ برقم: ٢٠٦٩) والترمذي (٥/ ١٩٩ برقم: ٢٩٥٠) وقال حديث حسن.

على فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسير إلا ما ثبت عن النبي ﷺ[١].

ويؤكد على هذا المعنى ابن هبيرة فيقول: ومن مكايد الشيطان تنفير عباد الله عن تدبر القرآن، لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر، فيقول: هذه مخاطرة، حتى يقول الإنسان: أنا لا أتكلم في القرآن تورعًا[٢].

انتبه:

ويطلق ابن القيم تحذيرًا شديدًا يساعدنا على اجتياز تلك العقبة فيقول: ومن قال: إن له تأويلًا لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج[٣].

نعم، قد تضيق المعاني وتتسع حسب معارف الشخص ومستوى إدراكه، فالقرآن حمَّال أوجه ـ كما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ ولكن تبقى النقطة الجوهرية ألا وهي مقدار تأثر القلب بما يدركه العقل... فقد يفهم عالم من العلماء مفاهيم كثيرة، ويدرك بعقله معاني عميقة حول آية من الآيات، لكنها تظل حبيسة عقله، فلا ينتفع بها قلبه.

وفي المقابل قد يفهم رجل عادي، ذو ثقافة محدودة آية من الآيات بفهم محدود، ومع ذلك فإن هذه الآية بهذا الفهم قد تؤثر في قلبه، وتهز وجدانه.. فالعبرة بما يحدثه القرآن في القلب كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٢٣].

وتفاضل الناس عند ربهم ليس بكم المعارف التي في عقولهم، ولكن بمقدار التقوى التي في قلوبهم: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم (٥/ ١٨٧).
(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب (٣/ ٢٧٣) نقلا عن تدبر القرآن للسنيدي (ص: ٤٨).
(٣) التبيان في أقسام القرآن فصل (٦٠)، (ص: ١٤٤).

تأمل معي ما حدث لهذا الأعرابي عندما كان في مجلس الرسول ﷺ فاستمع منه قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِثْقَالُ ذَرَّةٍ؟ قَالَ: «**نَعَم**». فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: وَاسَوأَتَاهُ، مِرَارًا، ثُمَّ قَامَ وَهُوَ يَقُولُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَقَد دَّخَلَ قَلْبَ الأَعْرَابِيِّ الإِيمَانُ**»(١).

معنى التحذير من القول في القرآن:

أما بالنسبة لخوف البعض من أن يقول في القرآن برأيه فيقع فيما حذر منه رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث، فيرد عليه د. يوسف القرضاوي بقوله:

والجواب عن الحديث -إن صح- أنه محمول على وجهين:

الأول: أن يراد بالرأي الهوى، فهو يجر القرآن جرًّا لتأييد ما يهواه وما يميل إليه(٢)، فلا يجوز ولا يليق ولا يُقبل أن يكون القرآن تابعًا لمذهب في الفقه، أو نحلة في الكلام، أو مقولة في الفلسفة، أو شطحة في الصوفية(٣).

والثاني: أن يكون معنى الحديث: أن يهجم على تفسير القرآن دون أن يتأهل له بما يلزم من أدوات التفسير وشروط المفسر(٤).

وبديهي أن المتدبر، المتفكر في القرآن يختلف عن المفسر، فالمتدبر يبحث عن الهداية والشفاء في القرآن؛ لذلك فالمعنى هو مقصوده، أما المفسر فيقف عند كل كلمة ليشرح معناها ويستخرج وجوه الإعجاز والبيان فيها، وقد يستخرج منها أحكاما شرعية، وهذا مما لا شك فيه وظيفة العلماء المتخصصين والمؤهلين لهذا العلم.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:٢٧٨).

(٢) كيف نتعامل مع القرآن العظيم ليوسف القرضاوي (ص: ٢١٠).

(٣) المصدر السابق (ص: ٢٥٨).

(٤) المصدر السابق (ص: ٢١٠).

التلقي المباشر من القرآن:

إذن فـلا خطورة من التلقي المباشـر من القرآن بعد أخذ هـذه الضوابط في الاعتبار، والتأكد بأننا لا نأخذ من القرآن أحكامًا شـرعية بطريقة مباشـرة نلزم بها أنفسنا أو الآخرين، بل علينا الرجوع إلى كتب التفسير والفقه إذا ما أردنا معرفة تلك الأحكام.

(فتفسـير مراد الله واسـتنباط الأحكام الشـرعية هما منزلـة خاصة بالعلماء والمفسرين، أما الفهم والاعتبار والتذكر والاتعاظ فلا عذر لأحد في تركه)(١).

ويجتهد الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان حجج يرد بها على من سلك هذا المسلك، وملخص ما قال: إن الله ـ سـبحانه – كمّل عقول العباد ورزقهم فهم كلامه، ثم إن فهم كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية عند قرعها الأسماع لا يحتاج معناها إلـى علم النحو، ولا إلى علم الأصول، بل في الأفهام والعقول ما يجعلها تسـارع إلى معرفة المراد، فإن من قرع سمعه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقـرة: ١١٠]، يفهـم معناه من دون أن يعرف أن ﴿مَا﴾ أداة شـرط، و﴿تُقَدِّمُواْ﴾ مجزوم بها لأنه شرطها و ﴿تَجِدُوهُ﴾ مجزوم بها لأنه جزاؤها، ومثلها كثير.

ثم إنك ترى العامة يسـتفتون العالم ويفهمون كلامـه وجوابه وهو كلام غير مُعْرب في الأغلب، بل تراهم يسمعون القرآن فيفهمون معناه ويبكون لقوارعه وما حواه، ولا يعرفون إعرابًا ولا غيره، بل ربما كان موقع ما يسمعونه في قلوبهم أعظم من موقعه في قلوب من حقق قواعد الاجتهاد، وبلغ الذكاء والانتقاد.

ثم إن هـؤلاء العامة يحضرون الخطب في الجمع والأعياد، ويذوقون الوعظ ويفهمونه ويفتت منهم الأكباد، وتدمع منهم العيون، فيكثر منهم البكاء والنحيب.

ثم إنك تراهم يقرؤون كتبًا مؤلفة من الفروع الفقهية ويفهمون ما فيها، ويعرفون

---

(١) تدبر القرآن للسنيدي بتصرف يسير (ص: ٤٩).

معناها، ويعتمدون عليها ويرجعون في الفتوى والخصومات إليها.

فيا ليت شعري! ما الذي خص الكتاب والسنة بالمنع عن معرفة معانيهما، وفهم تراكيبهما ومبانيهما والإعراض عن استخراج ما فيهما، حتى جعلت معانيهما كالمقصورات في الخيام، وقد ضربت دونها السجوف، ولم يبقَ لنا إليهما إلا ترديد ألفاظهما والحروف، وأن استنباط معانيهما قد صار حجرًا محجورًا وحرمًا محرمًا محصورًا(١).

ماذا قال صاحب الظلال؟

ولأهمية التعامل المباشر مع القرآن يقول الاستاذ سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمته لتفسير سورة الرعد: وإنني لأهيب بقراء هذه الظلال، ألا تكون هي هدفهم من الكتاب إنما يقرؤونها ليدنوا من القرآن ذاته. ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته، ويطرحوا عنهم هذه الظلال(٢).

وليس معنى هذا هو ترك هذا التراث الضخم من التفاسير العظيمة التي تركها علماء الأمة على مر العصور، فالتفسير بلا شك يعين على زيادة الفهم، وإزالة الإشكاليات أمام العقل، ومعرفة الحكم الشرعي المستنبط من الآيات.

ومع أهمية الرجوع إلى التفسير لمعرفة هذه الأمور وغيرها إلا أنه ليس شرطًا للانتفاع الحقيقي بالقرآن كمنهج حياة يعظ صاحبه، ويذكره بما ينبغي أن يتذكره، ويزيد إيمانه، ويصلح قلبه ويعينه على مواجهة متغيرات الحياة... وهذه هي أهم وظيفة للقرآن.

  

(١) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد (ص:٣٦)، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية، الجزء الأول، نقلًا عن تدبر القرآن للسنيدي (ص: ٤٨، ٤٩) بتصرف يسير.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٠٣٩).

العقبة الثالثة:

مفهوم التدبُّر وطبيعته

البعض يتصور أن معنى التدبر: إعمال العقل في كل كلمة من كلمات القرآن، والتدقيق الشديد فيها، والغوص في معانيها.. هذا التصور يجعل من التدبر عملية شاقة لا يستطيع أحد أن يستمر عليها، وفي الوقت ذاته فإنها لا تحقق مقصوده. فتدبر القرآن وسيلة لدوام التذكر بما هو مطلوب منا، ومن خلاله تتضح الرؤية لطريق الهدى، وبه يتعظ القلب فيزداد إيمانًا وتقوى.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه: ١١٣].

فليس المقصد من تدبر القرآن إظهار نوع الإعجاز البياني واللغوي، وإمتاع العقل بما فيه من أدب وتاريخ وقصص -وإن كان كل هذا من محتوياته- بل المقصد الأساسي هو المعنى الذي يخرج به قارئه وتفاعل القلب معه مما يجعله في حالة من دوام التذكر، كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩].

ويضع الشيخ عبد الرحمن السعدي القاعدة لقارئ القرآن فيقول: «وأن يجعل المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة له»[١].

(١) تيسير الكريم الرحمن - المقدمة (ص:٣).

ولو تفهمنا هذه القاعدة لأصبح التدبر سهلًا ميسرًا لمن جعله وسيلة للبحث عن الهدى والشفاء.. فلن يقف القارئ عند كل كلمة يقرؤها بل سيتفكر في المعنى الإجمالي للآية وارتباطها بجوانب الهداية، وأما ما أشكل عليه فهمه فليتركه لعالمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وغالبًا ما سيجد ما يوضحه في موضع آخر بالقرآن، وحسبنا في ذلك ما قاله رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**»[١].

قال عبد الله بن مسعود: إن للقرآن منارًا كمنار الطريق، فما عرفتم منه فتمسكوا به، وما يشبه عليكم -أو قال: شُبِّه عليكم- فكلوه إلى عالمه[٢].

ويقول الحسن البصري في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه[٣].

طبيعة التدبر:

حينما كنا نسمع أو نقرأ عن أهمية تدبر القرآن والعمل بما فيه، كانت الرغبة تجتاح النفس، والشوق يملؤها لذلك، ولكن ما إن نبدأ في التطبيق إلا ونقف عاجزين أمام الآيات فلا نكاد نستخرج منها شيئًا، تمامًا كمن يقال له: انظر إلى الشمس وقت الغروب وتفكر فيها.. هو يتمنى أن يخرج بشيء من خلال رؤيته لهذا المنظر الجميل ولكنه يقف جامدًا أمامه؛ لأنه لم يتعلم كيف يتفكر، وعمَّ يبحث.

الأمر ذاته إذا ما طُلب من شخص ما إبداء رأيه في مركبة أو بناية أو ميزانية شركة وهو بعيد عن هذه المجالات، فرأيه إن أبداه لن يفيد أحدًا طالما أنه لا يعرف

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١/ ٣٠٤ برقم: ٦٧٠٢).
(٢) أخرجه أبو عبيد في كتاب فضائل القرآن (ص:٩٩).
(٣) فضائل القرآن للرازي (ص: ١٢٦).

أين سيحرك عينيه، وعمَّ سيبحث، وهذا هو ما يحدث معنا، فعندما يطلب منا التدبر واستخراج خواطر من الآيات، تجد الواحد منا يتأمل فيها ويشعر أنها تحتوي على معانٍ عظيمة، لكنه لا يخرج منها بشيء يُذكر لأنه لم يتعلم كيف يتدبر.

نعم قد يتأثر الوجدان بالقراءة والسماع في بعض الأوقات، ولكن هذا التأثر غالبًا ما يكون مع آيات الوعيد التي من شأنها مخاطبة الوجدان واستثارة المشاعر، وهذا وحده لا يكفي.

فلنبحث عن الهدى:

القرآن مليء بأنواع كثيرة من العلوم وأوجه الإِعجاز، فمن قرأه وهو يبحث عن البلاغة وجدها، ومن قرأه وهو يبحث عن القصة عثر عليها، ومن قرأه وهو يبحث عن الإعجاز العلمي ظفر به، ومن قرأه وهو يبحث عن الهداية وجدها، ومن قرأ القرآن وهو لا يبحث فيه عن شيء لن تراه غالبًا وقد استوقفه شيء منه، ألم يقل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن قصة يوسف: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧].

فالسائلون المهتمون بالموضوع هم الذين سينتفعون بما في القصة من آيات وعبر.

من هنا نقول: إن من تبين له بوضوح الهدف الأساسي من نزول القرآن، ستسهل عليه قراءة القرآن وتدبره، وسيخرج منها بالكثير من جوانب الهداية، أما من لم يتضح له هذا الهدف ولم يستشعر عظيم حاجته إليه فسيصعب عليه التدبر، ولن يستطيع المداومة عليه لعدم وجود قضية تشغله يعلم أن في القرآن حلها، وحسبنا في ذلك قول ابن تيمية: من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له الحق[1].

(١) العقيدة الواسطية (ص: ١٠٣) شرح هراس، نقلا عن تدبر القرآن للسنيدي (ص: ١١١، ١١٢).

العقبة الرابعة:

ضرورة ختم القرآن في مدة محددة

يظن البعض أن الواجب عليه ختم القرآن في شهر مثلًا، وأنه لو تأخر عن ذلك فقد يقع في الإثم والحرج.

نعم ينبغي علينا أن ننشغل بالقرآن، وألا يمر علينا يوم دون القراءة في المصحف، ولكن ليس معنى هذا أن من الواجب ختم القرآن في مدة محددة، فالصحابة مع شدة اعتنائهم بالقرآن وانشغالهم به إلا أنهم كانوا يتفاوتون في مدة ختمه.

أخرج ابن أبي داود عن مكحول قال: كان أقوياء أصحاب رسول الله ﷺ يقرؤون القرآن في سبع وبعضهم في شهر، وبعضهم في شهرين، وبعضهم في أكثر من ذلك[(١)].

وليس معنى هذا أننا سنمكث فترات طويلة لنختم القرآن بل العكس هو المطلوب، فعلى قدر انشغالنا بالقرآن والإكثار من تلاوته وتدبره سيكون النفع المتحقق بمشيئة الله، وعلى قدر ما نعطي للقرآن من أوقاتنا وعقولنا وقلوبنا يعطينا من خيره ونوره.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ١٠٤).

وعندما نعطي للقرآن المساحة الزمنية الكبيرة من يومنا سنتمكن -بعون الله- أن نختمه في أقل من شـــهر، ولكن دون أن يكون هناك ســـيف مســـلط على رقابنا يدعونا للمسارعة في القرآن كي لا نتجاوز المدة التي حددناها في أذهاننا.

هب أنك في يوم من الأيام استوقفتك آية وأنت تقرأ القرآن، فهزّت مشاعرك، وذقت معها حلاوة الإيمان كلما رددتها، هل تترك هذه اللحظات السعيدة -لحظات الإيمان- خوفًا من عدم إنهاء وردك المحدد؟!

فـــإن قال قائل: ولكـــن وجود حد أقصى لمدة الختم في ذهني يشـــحذ همتي لمداومة القراءة.. إن كان الأمر كذلك فلا بأس منه شريطة ألا يخل بمقصود القراءة، وألا يكون كذلك على حساب ترديد الآيات والتجاوب معها، والأفضل أن نجعل هذا الأمر من باب الاستئناس وليس من باب الإلزام.

  

العقبة الخامسة:

أمراض القلوب

يظن البعض أن علاج القلب من أمراضه لا بد أن يسبق العودة إلى القرآن، فالقلب المريض لا يمكنه الانتفاع الحقيقي بالقرآن -كما يقولون- ويرفع هؤلاء شعار «التخلية قبل التحلية».. فإن كان الأمر كذلك فما هو إذن دور القرآن؟!

ألم يصفه الله عَزَّوَجَلَّ بأنه شفاء لما في الصدور؟!

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

فالقرآن نِعم الدواء لأمراض القلوب، فقوة نوره تخترق الظلمات فتبددها، وتحرق ما يقابلها من شهوات وشبهات، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

نعم في البداية سيجد نور القرآن بعض الصعوبة في الدخول إلى القلب؛ بسبب حُجب الظلمات التي تراكمت عليه من آثار المعاصي والغفلات، ولكن هذه الحجب لن تستطيع أن تقاوم طويلًا دخول أشعة نور القرآن إلى القلب إذا ما استمر الشخص على قراءته بتدبر وترتيل، وأنزل دواء القرآن على دائه، وكرر الآية التي تكشف له مرضه وترشده للعلاج، واستخلص منها أعمالًا يقوم بها في سائر حياته. وبالمداومة على ذلك فمن المتوقع أن يمسَّ نور القرآن القلب، وكلما دخل النور

إلى جزء من أجزائه انطرد منـــه الهوى، وعادت إليه الحياة مرة أخرى، إلى أن يأتي الوقـــت الذي يعود فيها القلب إلى كامل صحتـــه، قال تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد: ١٧].

  

العقبة السادسة:

مفهوم الانشغال بالقرآن

إن الانشغال الحقيقي بالقرآن يعني أول ما يعني الانشغال بمعانيه، ومواعظه، وجوانب هدايته، وامتلاء القلب بها وتمكنها من اليقين، أو بمعنى آخر اســتيلائها على العقل الباطن واللاشعور، فينعكس ذلك على خواطر العبد واهتماماته.

* والانشــغال بالقرآن يعني كذلك الانشغال بدلالة الناس عليه وعلى روحه الغائبة وكيفية الانتفاع الحقيقي به في تحقيق الهداية والشفاء والتغيير -بإذن الله.

* ومن صور الانشــغال بالقرآن: تعريف الناس بربهم عن طريقه، وذلك من خلال ربط آيات القرآن بآيات الكون، والاســتدلال منها على الخالق العظيم، ذي الجلال والإكرام.

قال تعالــى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

* ومن صور الانشغال بالقرآن كذلك: السعي الدءوب على تحويله إلى واقع ملموس في حياة الناس ليصبح دســتور الأمة، فتســود أخلاقه جوانب المجتمع، وهذا لن يتم إلا بوجود جيل قرآني يدعو إلى الله بأفعاله قبل أقواله.

* ومع هذا كله يأتي الانشــغال بالقرآن كذلك بدوام تلاوتــه بالليل والنهار بتفهم وترتيل.

إن أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته هم أولئك الذين فهموا مراد الله من إنزالــه القرآن، فانكبوا عليــه وعملوا به، ودعوا الخلق إليــه، ولعل هذا هو ما كان يقصده الحســن البصري بقوله: إن أولى الناس بهــذا القرآن من اتبعه وإن لم يكن يقرؤه[١].

ومن لوازم تصحيح هذا المفهوم عدم حصر معنى قول الرسول ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَــنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[٢] على تعلم وتعليــم أحكام التجويد فقط، فكما قال ابن تيمية: دخل في قوله: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**» تعليم حروفه ومعانيه جميعًا، بل تعلم معانيه هو المقصــد الأول من تعلم حروفه وذلك الذي يزيد الإيمان، كما قال جندب بن عبد الله وعبد الله ابن عمر وغيرهما: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا، وأنتم تعلمتم القرآن ثم تتعلمون الإيمان.. ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة[٣].

  

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (رقم: ١٣٤).
(٢) البخاري (٦/ ١٩٢ برقم: ٥٠٢٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٠٤). نقلا عن تدبر القرآن للسنيدي (ص: ١٠٥،١٠٤).

الفصل السابع

كيف نعود إلى القرآن؟

كيف نعود إلى القرآن؟

إن سلوك طريق العودة إلى القرآن ليس أمرًا اختياريًّا، بل ضروريًّا ضرورة ماسة، وكيف لا؟ والعودة إليه يتوقف عليها صلاح الفرد الحقيقي الشامل، وتتوقف عليه كذلك نهضة الأمة من كبوتها وعودتها لسابق عزها ومجدها.. بإذن الله.

وابتعاد المسلمين عن القرآن وترك التمسك الصحيح به أمر قديم بدأ بعد جيل الصحابة بدرجة يسيرة، ثم ازدادت بتعاقب الأجيال حتى وصلت في عصرنا الحالي إلى درجة غير مسبوقة والتي يكشفها وضع أمة الإسلام بين الأمم كما قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»[١].

لقد رفع الله عَزَّوَجَلَّ بالقرآن الجيل الأول حين أحسنوا الاستمساك الحقيقي به، أما نحن فقد غضب الله علينا وتركنا نهوي للقاع.. فما دلالة ذلك؟!

ألا يدل على شدة سوء علاقتنا بالقرآن كما قال رسول الله ﷺ: «**وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**»..؟!

ولقد تم الحديث بشيء من التفصيل بفضل الله عن هذه القضية الخطيرة في غير هذه الصفحات[٢].

وخلاصة القول أنه لا بديل للعودة إلى القرآن، فالصخرة أغلقت الغار ولا

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٥٩ برقم: ٨١٧)

(٢) في كتاب «غربة القرآن»، وكتاب «الطريق الوحيد».

يوجد مخرج إلا من خلال عودة القرآن على ألسـتنا قـولًا ثقيلًا، وأن تمس روحه قلوبنا، وأن ترتفع عنها عقوبة تخفيفه.

نعم، هذا يحتاج إلى جهد كبير وعزم أكيد، واستمرار المحاولة، وعدم اليأس من بلوغ الهدف: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت:٦٩].

وفي الأسطر القادمة محاولة للتعرف على بعض الوسائل المعينة -بإذن الله- على سـلوك طريق العودة إلى القرآن، لعلها تشـكل مع ما جـاء في كتاب «غربة القرآن» وكتاب «الطريق الوحيد» ملامح الطريق للعودة إلى القرآن.

.. والله وحده المستعان.

  

التهيئة

قبل الحديث عن وســائل الانتفاع بالقرآن، هناك بعض العوامل من شأنها أن تهيئ المرء لحسن الدخول إلى عالم القرآن.

هذه العوامل هي:

* الدعاء والتضرع إلى الله.
* وضع القرآن على أعلى سلم الأولويات.
* سلامة النطق والترتيل.

الدعاء والتضرع إلى الله:

لعل ما قيل في الصفحات الســابقة يرسم إلى حد (ما) الصورة الصحيحة في التعامــل مع القرآن، ويزيل بعضًا من الموروثات القديمة عنه، ومع هذا فإن العامل الرئيس لدخول الواحد منا إلى عالم القرآن، وتذوقه، واســتخراج كنوزه هو شــدة احتياجه إليه ورغبته فيه.

ليتخيل كل منا أن مرضًا قد أصاب عضوًا من أعضائه، وأن البحث عن الدواء الذي يشــفيه قد أعياه، وأن معاناته من ذلك المرض تزداد يومًا بعد يوم، وفي هذه الأثنــاء يخبره أحد المقربين إليه بأن هناك كتابًا به وصفة أكيدة لمرضه، وقد جُربت من قبل وأتــت بنتائج مبهرة، لكنــه لا يعلم في أي صفحــات الكتاب تكون هذه الوصفة.

تُرى ماذا سيكون رد فعل هذا المريض؟! كيف سيتعامل مع هذا الكتاب، وكيف ستكون طريقة قراءته له؟ وهل سيسمح لذهنه أن يشرد في سطر منه؟ وإذا ما شرد هل سيتابع القراءة أم سيعود لقراءة ما شرد فيه مرة أخرى؟!

بالتأكيد أن هذا المريض سيكون في أعلى درجات اليقظة والاستعداد للتلقي والتنفيذ في كل لقاء له مع هذا الكتاب، وسيقرؤه مرات ومرات حتى يصل لدوائه.

فإن كان هذا فيما يخص البدن الذي سيبلى بعد الموت فلماذا لا نفعل ذلك مع القلب، وهو محل نظر الله عَزَّوَجَلَّ، وبقدر سلامته تكون النجاة يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

أخي:

ما الذي يجعلنا ننتظر، والكتاب الذي يحوي الشفاء والهداية بين أيدينا.. ميسر للذكر.. موجود في كل بيت.. لا ينقصنا إلا أن نمد أيدينا فنتناوله ونقبل عليه بشعور الملهوف الراغب في الهدى كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من تدبر القرآن طالبًا الهدى منه تبين له طريق الحق.

وقال القرطبي: فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى، وسنَّة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بنية صادقة على ما يحب الله، أفهمه الله كما يحب، وجعل له في قلبه نورًا[١].

فنقطة البداية -إذن- تبدأ مني ومنك، وهي استشعار الحاجة للعودة إلى القرآن.. هذا الشعور لا بد أن نترجمه في هيئة دعاء وتضرع إلى الله بأن ييسر لنا فهم كتابه، وحسن تدبره، والعمل بما فيه، وأن يُنزل القرآن على قلوبنا ويؤيدنا بروح منه.

---

(١) تدبر القرآن للسنيدي (ص: ١١٢).

ندعوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأن يمنع عنا كل ما يثبط عزائمنا ويبعدنا عن التدبر وحضور القلب.. نلح عليه بأن يحبب إلينا تدبر القرآن، وأن يعلمنا علم القرآن، وينور قلوبنا بنوره ويؤيدها بروحه.. ولا ينبغي أن يدفعنا تأخر الإجابة إلى اليأس وترك الدعاء، وحسبنا في ذلك ما قاله رسول الله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي**»[1].

الإمداد بقدر الاستعداد:

أخي: لنعلم جميعًا أن الإمداد بقدر الاستعداد، كما قال تعالى: ﴿**إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا**﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالبداية من العبد: ﴿**إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ**﴾ [النساء: ٣٥].

فلنُرِ الله من أنفسنا خيرًا، ولنكثر من الاستغفار والتوبة، ولنداوم قرع الباب وإن رُددنا.

قال رجل لذي النون وهو يعظ الناس: يا شيخ، ما الذي أصنع، كلما وقفت على باب من أبواب المولى صرفني عنه قاطع المحن والبلوى.

قال له: يا أخي كن على باب مولاك كالصبي الصغير مع أمه، كلما ضربته أمه ترامى عليها، وكلما طردته، تقرب إليها، فلا يزال كذلك حتى تضمه إليها[2].

القرآن والأولويات:

ومع الدعاء والتضرع إلى الله؛ علينا أن نضع القرآن في أعلى سُلم أولوياتنا واهتماماتنا، وأن نُعطيه أفضل أوقاتنا، ونمكث معه أطول فترة ممكنة، فعلى قدر ما

---

(١) رواه البخاري (٨/ ٧٤ برقم: ٦٣٤٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٥ برقم: ٢٧٣٥).

(٢) بحر الدموع لابن الجوزي (ص: ٦٥).

سنعطي للقرآن سيعطينا ويكرمنا، فهو كما أخبر عنه الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾ [الواقعة: ٧٧].

إن طول المكث مع القرآن من شأنه أن يسرع خطى التغيير المنشود.. تغيير العقل وإعادة تشكيله، وبناء اليقين الصحيح فيه، وتغيير القلب وطرد حب الدنيا والهوى منه، وترويض النفس على لزوم الصدق والإخلاص.

فكتاب هذا شأنه ينبغي أن نُسلم له زمام قيادتنا ونترك أنفسنا له، وأن نكثر من المكث معه كلما سنحت الفرصة لذلك.

وعلينا كذلك أن نهيئ مكانًا للقائه بعيدًا عن الضوضاء وعن كل ما من شأنه أن يشوش على الذهن ويقلل التركيز.

سلامة النطق:

ومن الأمور التي ينبغي أن نتقنها منذ البداية: تصحيح النطق بالقرآن وتعلم أحكام التجويد، فسلامة النطق من الأهمية بمكان لفهم القرآن، وكذلك أحكام التلاوة والتي من شأنها أن تيسر على القارئ ترتيل القرآن.

فإن قال قائل: ولماذا الترتيل؟ ألا يكفي سلامة النطق؟

إن للترتيل الكثير من الفوائد فضلًا عن كونه واجبًا على قارئ القرآن، فمن فوائده: إطالة مدة قراءة الآية؛ مما يتيح للعقل فرصة فهم المقصود منها.

يقول ابن حجر في شرحه لباب الترتيل في القراءة في صحيح البخاري: أي تبين حروفها، والتأني في أدائها ليكون أدعى إلى فهم معانيها[1].

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٠٨، ١٠٩).

ومن فوائده كذلك: أنه يستثير المشاعر، وكما قيل في الصفحات السابقة، فإن العبرة ليست بالتدبر العقلي فقط، ولكن لا بد أن يصحب ذلك انفعال وجداني ليحدث التأثر القلبي ويزداد الإيمان؛ لذلك نجد التوجيه النبوي بالتغني بالقرآن، أي بتحسين الصوت وتزيينه، وكذلك التباكي عند قراءته لمن لم يستطع البكاء.. كل ذلك لتستثار المشاعر ويتحقق المقصود من القراءة.

قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا، وَتَغَنَّوْا بِهِ، فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا»**(١).

إن تلاوة القرآن حق تلاوته كما يقول أبو حامد الغزالي هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزعاج والائتمار.. فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ(٢).

  

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٤٢٤، برقم ١٣٣٧).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٤٤٢).

الوسائل العملية لبدء الانتفاع بالقرآن

مما لا شـــك فيه أن من يقبل على القرآن مستشـــعرًا أنه خطاب من الله عَزَّوَجَلَّ موجه إليه يحمل في طياته مفاتيح ســـعادته في الدنيا والآخرة، وأنه القادر بإذن الله على تغييره مهما كان حاله.. لا شـــك أن هذا الشخص لا يحتاج إلى من يدله على وســـائل تعينه على الانتفاع بالقرآن؛ لأنه بهذا الشـــعور قد أصبح مهيأ للتغيير الذي يقوم به القرآن.

أما وإنه من الصعب علينا في البداية أن نكون كذلك بسبب ما ورثناه من أشكال التعامـــل الخاطئ مع القرآن؛ مما يجعل هناك حاجزًا نفســـيًّا بيننـــا وبينه يمنعنا من الانتفاع الحقيقي به.

أما والأمر كذلك فإن بدء عودتنا إلى القرآن تحتاج إلى وســـائل سهلة وعملية ومحددة تعين صاحبها على إدارة وجهه للقـــرآن، والإقبال على مأدبته، والدخول دائرة تأثير معجزته بصورة متدرجة.

هذه الوسائل على سبيل الإجمال هي:

١- المداومة على التلاوة اليومية.

٢- تهيئة الجو المناسب.

٣- التركيز مع القراءة.

٤- الاجتهاد في فهم الآية بصورة إجمالية.

٥- التجاوب مع القراءة.

٦- ترديد الآية التي تؤثر في القلب.

٧- استصحاب معنى من المعاني الإيمانية.

وقبل أن نتحدث في شرح وبيان هذه الوسائل هناك أمر جدير أن نلفت الانتباه إليه، وهو أن هذه الوسائل السبع تخص القارئ للقرآن، أما السامع فعليه أن يأخذ منها قدر المستطاع لتتحقق له الفائدة المرجوة من هذه المعجزة الكبرى.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ويقول ابن عباس: مَن سمع آية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ تتلى كانت له نورًا يوم القيامة[1].

أولًا: المداومة على التلاوة اليومية:

لكي يحقق القرآن هدفه معنا فيهدينا إلى الصراط المستقيم، ويثبتنا عليه، ويغير ما بأنفسنا، ويجعلنا في حالة دائمة من التبصر والتذكر؛ لا بد من دوام التعرض له طلبًا للهدى والشفاء، ولا نمل من ذلك، فالتغيير القرآني تغيير بطيء، هادئ، متصاعد، ولكي يؤتي ثماره لا بد من استمرارية التعامل معه، فلا يصح ترك قراءة القرآن يومًا من الأيام وإلا تضاءل الأثر المترتب عليها.

فلنداوم على التلاوة اليومية ولفتراتٍ طويلة، ليلًا ونهارًا، سفرًا وحضرًا.. ولتكن تلاوة مرتلة بطيئة، ولا يكن هم القارئ متى سينتهي من السورة أو الورد، بل ليكن همه متى يتجاوب قلبه، ويخشع فؤاده، وتدمع عيناه.

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:٦٢).

أما بالنسبة للأوقات المفضلة للقراءة فيقول عنها النووي في كتاب الأذكار:

اعلم أن أفضل القراءة ما كان في الصلاة: وأما القراءة في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها ما كان بعد صلاة الصبح، ولا كراهة في القراءة في وقت من الأوقات ولا في أوقات النهي عن الصلاة[١].

ثانيًا: تهيئة الجو المناسب:

من الضروري تهيئة الظروف المناسبة لاستقبال القرآن، ومن ذلك وجود مكان هادئ بعيد عن الضوضاء يتم فيه لقاؤنا به، فالمكان الهادئ، يُعين على التركيز وحسن الفهم وسرعة التجاوب مع القراءة، ويسمح لنا كذلك بالتعبير عن مشاعرنا إذا ما استثيرت بالبكاء والدعاء.

ومع وجود المكان الهادئ علينا أن يكون لقاؤنا بالقرآن في وقت النشاط والتركيز لا في وقت التعب والرغبة في النوم، ولا ننسى الوضوء والسواك.

ثالثًا: التركيز مع القراءة:

علينا أن نجتهد حين نلتقي بالقرآن بحضور الذهن مع آياته، فإذا ما حدث شرود في وقت من الأوقات علينا أن نعيد الآيات التي شرد فيها ذهننا.

نعم في البداية سنجد صعوبة في تطبيق هذه الوسيلة بسبب تعودنا على التعامل مع القرآن كألفاظ مجردة من معانيها، ولكن بالمداومة والمثابرة سنعتاد بمشيئة الله القراءة بتركيز وبدون سرحان.

---

(١) الأذكار للنووي (ص:١٥٦).

ولنتذكر دائمًا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

ولكن في بعض الأوقات قد نبدأ القراءة فنجد أنفسنا وقد غلبها النعاس، وأصبحنا لا ندري ما نقول، فماذا نفعل إذا ما فشلنا في جمع الذهن مع القراءة بعد العديد من المحاولات؟

علينا عندئذٍ التوقف بنية العودة إليها في وقت آخر.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ اللَّيْلِ فَاسْتَعْجَمَ الْقُرْآنُ عَلَى لِسَانِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَا يَقُولُ فَلْيَضْطَجِعْ**»(١).

وليكن مقياس استمرارنا في القراءة قول الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «اقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرؤه»(٢).

رابعًا: الاجتهاد في فهم الآية بصورة إجمالية:

البعض منا عندما يشرع في تدبر القرآن تجده يقف متمعنًا عند كل لفظ فيه؛ مما يجعل التدبر عملية شاقة عليه، وما يلبث إلا أن يملّ فيعود أدراجه إلى الطريقة القديمة في القراءة دون فهم ولا تدبر.

فكيف لنا إذن أن نقرأ القرآن بتدبر واسترسال في الوقت نفسه؟!

الطريقة السهلة لتحقيق هذين الأمرين معًا هو أن نأخذ المعنى الإجمالي للآية، وإذا وجدنا بعض الألفاظ التي لا نعرف معناها، فعلينا أن نتعرف على المعنى من السياق، وهذا ما أرشدنا إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ**

---

(١) رواه مسلم (١/ ٥٤٣ برقم:٧٨٧).

(٢) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص:١٣٣).

بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْـهُ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ»(١).

وبهذه الطريقة تصبح قراءة القرآن سهلة وميسرة للجميع.

فعلى سبيل المثال إذا ما قرأنا قوله تعالى: ﴿**وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا** ﴿٤٠﴾﴾ [الكهف: ٤٠]. ولا ندري معنى حسبانًا ولا زلقًا لكننا نفهم من السياق أن شرًّا قد يصيب هذا البستان.

وعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿**وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا** ﴿٣١﴾﴾ [عبس: ٣١]، ولا ندري معنى أبًّا، فالسياق يدلنا على أنه نوع من المأكولات.

نعم إن معرفة معاني الكلمات الغريبة تساعدنا على زيادة الفهم، ولكن علينا ألا نجعل عدم معرفتها عائقًا يحول بيننا وبين الاسترسال في القراءة والتركيز معها والتأثر بها.

وليس معنى هذا عدم النظر في كتب التفسير ومعاني الكلمات، فمما لا شك فيه أن للتفسير دورًا كبيرًا في حسن الفهم، وله أيضًا دور أساسي في معرفة الأحكام الشرعية، والتي لا ينبغي علينا أن نستنبطها بمفردنا من القرآن، فتاريخ الأمة الإسلامية يشهد بانحراف الكثير ممن استنبط تلك الأحكام بمفرده من القرآن دون أن يكون مؤهلًا لذلك، مثل الخوارج وغيرهم.

ومع هذا الدور العظيم للتفسير إلا أنه ينبغي أن يكون له وقته الخاص به، وغير مرتبط بوقت القراءة، فنحن لا نريد أن نخرج من لقائنا بالقرآن بزيادة الفهم فقط، ولكن نريد القلب الحي كذلك، وهذا يحتاج إلى اللقاء المباشر مع القرآن، والسماح

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١١/ ٣٠٤ برقم: ٦٧٠٢).

بقـوة تأثيره أن تنسـاب داخلنـا.. وتتصاعد من خلال الاسـتمرار فـي القراءة، والاسترسال مع الآيات والتجاوب معها.

حُسن الابتداء والوقف:

من الأمور المعينة كذلك على فهم المعنى الإجمالي للآيات: حُسـن الابتداء والوقف.

يقول النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويُسـتحب للقارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضـه ببعض، وكذلك إذا وقف عند المرتبط وعند انتهاء الكلام، ولا يتقيَّد في الابتداء ولا في الوقف بالأجزاء والأحزاب والأعشـار، فإن كثيرًا منها في وسط الكلام المرتبط[١].

خامسًا: التجاوب مع القراءة:

القرآن خطاب مباشـر من الله عَزَّوَجَلَّ لجميع البشـر: لي، ولك، ولغيرنا.. هذا الخطاب يشـمل من ضمن ما يشـمل: أسـئلة وأجوبة، ووعدًا ووعيـدًا، وأوامر ونواهي.

فعلينا أن نتجاوب مع الخطاب القرآني بالرد على أسـئلته، وتنفيذ ما يدل عليه من تسـبيح أو حمد أو اسـتغفار أو سـجود، وعلينا كذلك التأميـن على الدعاء، والاسـتعاذة من النار، وسـؤال الجنة، ولقد كان هذا من هدي رسـول الله ﷺ، وصحابته الكرام.

عن عبد الله بن السـائب قال: أخَّرَ عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ العشـاء الآخرة فصُليت ودخل فكان في ظهري، فقرأت: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١﴾ [الذاريات: ١] حتى

(١) الأذكار للنووي (ص: ١٦٣).

أتيت على قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢]، فرفع صوته حتى ملأ المسجد: أشهد(١).

وسمع عبد الله بن مسعود رجلًا قرأ: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: ١].

قال: إي وعزتك، فجعلته سميعًا بصيرًا، وحيًّا وميتًا(٢).

وعن أبي عمارة الكوفي -عبد خير- أنه سمع عليًّا قرأ في الصلاة: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١]، فقال: سبحان ربي الأعلى(٣).

فعلينا المداومة على استخدام هذه الوسيلة والتي سنجد لها أثرًا عظيمًا بمشيئة الله في دوام يقظة العقل، وسرعة تجاوب القلب.

سادسًا: ترديد الآية التي تؤثر في القلب:

إن يقظة العقل وقت قراءة القرآن أمر نستطيع تحصيله بشيء من المجاهدة وبعون من الله عَزَّوَجَلَّ، أما حضور القلب وتجاوبه مع القراءة وتأثره بها؛ فهذا أمر لا نملكه وقد يمضي بنا وقت ليس بالقصير حتى يبدأ القلب في التحرك مع القراءة، فإلى أن تنفذ أنوار الآيات من بين أغلفة الظلمات وتصل إلى القلب علينا بالمداومة على القراءة المتأنية مع يقظة العقل، والتضرع إلى المولى عَزَّوَجَلَّ بأن يفتح قلوبنا لكلامه، وبمشيئة الله لن يطول انتظارنا، فبمرور الوقت سيبدأ القلب بالتأثر والانفعال ولو مع آية من الآيات.

فإذا ما تم ذلك في لحظة من اللحظات.. فماذا نفعل حينئذٍ؟!

---

(١) فضائل القرآن لأبي عبيد (ص: ١٤٩).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٥٠).

(٣) المصدر السابق (ص: ١٥٣).

ينبغي علينا أن نستثمر وجودها أحسن استثمار، وأن نعض عليها بالنواجذ فهذه اللحظات من أهم أوقات حياتنا، ومن خلالها قد يبدأ التغيير المنشود.

فمعنى مصاحبة التدبر العقلي للتأثر القلبي بآية من الآيات هو زيادة الإيمان بها، والله أعلم، وهذا قلما يحدث للواحد منا وبخاصة في البداية؛ لذلك علينا ألا نضيع تلك الفرصة إذا ما جاءتنا ولنعمل على زيادة الإيمان في قلوبنا بترديد تلك الآية مرات ومرات، وعلينا ألا نملّ من ذلك طالما وُجد التجاوب، وشيئًا فشيئًا ستتبدد الظلمات من القلب ويُطرد الهوى، ويصبح النور هو الغالب فيه، فيسهل عليه التأثر بالآيات ويزداد لينه وخشوعه بها.

يقول ابن القيم: ولو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها، فإذا قرأه بتفكر حتى مر بآية هو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة.. فقراءة آية بتفكر وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر ولا تفهم، وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن، وهذه كانت عادة السلف، يردد أحدهم الآية إلى الصباح[1].

وبترديد الآية التي تؤثر في القلب تتولد داخل العبد طاقة، عليه أن يُحسن تصريفها بالبكاء والدعاء كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩].

سابعًا: استصحاب معنى من المعاني الإيمانية:

هناك وسيلة أخرى من شأنها أن تُسرع الخطى نحو الدخول إلى عالم القرآن، ودائرة تأثيره القوية على الإنسان.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٣، ٥٥٤).

هذه الوسيلة هي استصحاب معنى من المعاني الإيمانية، والبحث عن مدلوله من خلال رحلتنا مع القرآن.

فإذا ما كانت رحلة المسلم مع كتاب ربه تبدأ من سورة الفاتحة وتنتهي بسورة الناس؛ فلتكن من سمات كل رحلة البحث عن معنى جديد من المعاني التي تؤسس القاعدة الإيمانية في القلب وتبني اليقين في العقل.

ومما لا شـــك فيه أن استصحاب معنى إيماني أو أكثر في كل رحلة سيكون لـــه بعون الله وفضله أبلغ الأثر في تـــذوق حلاوة الإيمان، فإذا ما صاحب ذلك ربط مدلول هذا المعنى بواقع الحياة فلا تسـل عما سـيحدثه من قرب حقيقي، ومعرفة، وأنـــس بالله عَزَّوَجَلَّ، والتمتع بالحيـاة الطيبة التي وعـد الله بها عباده وأولياءه.

ومن فوائد استصحاب المعنى الإيماني في قراءتنا للقرآن أنه يُثير الهمة ويقوّي العزيمة.

يقول ابن القيم:

فإن سيرهم - أي السائرين إلى الله - إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب ولا سلوك له.

قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: «من رأى محمدًا ﷺ فقد رأى غاديًا رائحًا، لم يضع لبنة على لبنة، ولا قصبة على قصبة، ولكن رُفع له علم فشمر إليه»(١).

ولا يزال العبد في التواني والفتور والكســل، حتــى يرفع الله عَزَّوَجَلَّ -بفضله ومَنِّه- علمًا يشاهده قلبه، فيشمر إليه ويعمل إليه(٢).

---

(١) الزهد لأحمد بن حنبل (برقم: ١٥٩٦).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٣٦٦، ٣٦٧).

وإليك أخي القارئ بعضًا من العناوين المقترحة لهذه المعاني الإيمانية، لك أن تستصحب منها ما تشاء في رحلتك المباركة مع كتاب ربك(١).

التعرُّف على الله (الواحد):

وذلك من خلال تتبع آيات القـرآن التي تتحدث عن صفة الوحدانية، وآثارها في الكـون، وكيف يُثبت القرآن أن للكون إلهًا واحدًا لا شـريك له، وأنه هو الله، ونتتبع كذلك تفنيد الآيات لمزاعم المبطلين الذين يدعون أن هناك إلهًا آخر للكون، أو أن لله شريكًا في ملكه.

مثل قوله تعالى: ﴿ **هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ** ﴾ [لقمان: ١١].

وقولـه: ﴿ **قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾** ﴾ [الأحقاف: ٤].

التعرُّف على الله (المُنعِم):

فمن خلال رحلتنا مـع القرآن نبحث عن الآيات التي تتحـدث عن نِعم الله عَزَّوَجَلَّ علينـا، ونعمل على إحصائها قدر الإمكان، والتعرف على جوانبها المختلفة كنعـم الإيجاد والإمـداد، والحفظ، والتسـخير، والاجتباء والهدايـة، والثبات، والتوفيق، والأمن، والستر، مثل قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [النور: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ** ﴾ [الملك: ٢٣].

---

(١) بفضل الله تم عـرض العديد من النماذج لهذه المعاني الإيمانيـة بصورة أكثر تفصيلًا في كتاب: «بناء الإيمان من خلال القرآن».

وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣].

التعرف على الله (الرحيم):

وذلك من خلال تتبع الآيات التي تتحدث عن الرحمة الإلهية وآثارها في الكون والنفس، مثل قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر: ٥٣].

التعرف على الله (القوي) (الجبار):

الله عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه بأنه: القوي، الجبار، شديد العقاب، ذو انتقام، فهو سبحانه يعاقب الظالمين والعاصين، وينتقم منهم.. ولقد أفاض القرآن في الحديث عن مظاهر تلك الصفة سواء كان ذلك على مستوى الأمم أو على مستوى الأفراد.

مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ (١٠٢) ﴾ [هود: ١٠٢].

وقوله: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

جوانب الفقر إلى الله:

فقرنا إلى الله عَزَّوَجَلَّ فقر ذاتي ومطلق يشمل جميع أسباب ومقومات الحياة، والهداية، والثبات، والتوفيق، والعصمة من الفجور، ولقد تم بيان بعض أوجه الفقر إلى الله بشيء من التفصيل في الفصل الثالث (القرآن والتغيير) عند الحديث عن النفس.

قال تعالى على لســان نبيه إبراهيــم: ﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقال تعالى على لســان المؤمنيــن: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الملك: ٣٠].

التعرف على الله (العزيز - القهار):

كل ما في الكــون خاضع لله عَزَّوَجَلَّ منقاد لإرادته، لا يتحرك متحرك إلا بحول الله وقوته، فما شــاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإرادته الكونية غالبة، فعال لما يريد، غالب على أمره... فالعبد يريد شــيئًا والله يريد شــيئًا آخر، فلا يحدث إلا ما يريده الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ [آل عمران: ٦].

﴿ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴾ [الشورى: ١٢].

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٤].

الدنيا دار امتحان:

تم بفضل الله شرح هذا العنوان في الفصل الثاني (جوانب الهداية في القرآن).

ويتضمن هذا المعنى: بداية خلق آدم، عداوة الشــيطان للإنســان، الدنيا قاعة امتحان، أدوات الامتحان والإجابات الصحيحة، تســجيل الإجابات والرقابة على الامتحان، نهاية الامتحان، يوم النتيجة وتوزيع الشــهادات، وذهاب الناجحين إلى

الجنة، وسوق الراسبين إلى النار.

مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف: ٤٨، ٤٩].

الرسائل الإلهية:

الله عَزَّوَجَلَّ أخبرنا بأنه لا تدركه الأبصار، ولا سبيل لمعرفته إلا من خلال ما أتاحه لنا من معلومات عنه سبحانه، هذه المعلومات أودعها الله في مخلوقاته، وجعلها آيات تدل عليه، وتذكر به.. قال تعالى:

﴿ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الروم: ٢٤].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحقاف: ٢٧].

كيف ربى الله عَزَّوَجَلَّ رسولنا ﷺ على تمام العبودية؟

فنتأمل في رحلتنا المباركة مع القرآن التوجيهات التي وُجهت لرسول الله ﷺ، ونعمل على أن ننهل منها لنقتفي أثره ﷺ في عبوديته لربه.

مثل قوله تعالى:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٠-١٣٢].

السنن الاجتماعية الحاكمة للحياة:

من خلال هذا المعنى نتعرف من القرآن على القوانين التي تجلب للناس السعادة أو الشقاء، ولقد تم شرح هذا الموضوع بشيء من التفصيل في الفصل الثاني (جوانب الهداية في القرآن).

هذه القوانين كالمعادلات الرياضية، حين يكتمل الطرف الأول يتحقق الطرف الثاني، والملاحظ أن الطرف الأول يخص العبد وما يفعله.

ومن هذه القوانين: قانون النصر والهزيمة، والتيسير والتعسير، سلب النعم، هلاك الأمم، الحياة الطيبة.

مثل قوله تعالى: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧].

وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ [الرعد: ١١].

وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الليل: ٥-٧].

  

الخاتمة

وأخيرًا: القرآن ينادينا

وقبل أن ينتهي الحديث في هذه الصفحات عن القرآن وعن كيفية البدء بالعودة إليه؛ أدعوك أخي القارئ إلى قراءة هذه الكلمات التي استشعرت وكأن القرآن يريد أن يرسل لنا مثلها.

«.. أيها المسلمون في كل مكان سارعوا بالعودة إليَّ والانتفاع بي قبل أن تضيع منكم الفرصة، ويشتد بكم الندم.

أقبلوا عليّ بكيانكم لتهتدوا بهداي، ولتستشفوا بشفائي، ولتنتفعوا بمواعظي...

اتركوا أنفسكم لي، وسيروا معي حيث سرت، فسأكون لكم ـ بمشيئة الله ـ نِعم القائد الذي يرشدكم ويأخذ بأيديكم إلى العيش السعيد في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة.

انشغلوا بي، وأكثروا من تلاوتي، وتدبروا آياتي، واعملوا بما أدلكم عليه قدر استطاعتكم.. ولا تبخلوا عليَّ بأوقاتكم.. اجعلوا لي حظًّا من نهاركم، ونصيبًا معتبرًا من ليلكم.

اصحبوني في حلكم وترحالكم، ولكم عهد ألا أخذلكم، أو أتركم تواجهون الصعاب بمفردكم؛ بل سأكون معكم نعم الصديق لصديقه، وسأصحبكم في قبوركم لتستأنسوا بي في وحدتكم، وستجدوني أمامكم يوم القيامة أحاج عنكم حتى أرفعكم في الجنة درجات ودرجات.

اعتصموا بي فأنا حبل الله المتين، من استمسك به ارتفع إلى السماء، وتخلص من جاذبية الأرض والطين واقترب من مولاه.

إياكم ثم إياكم أن تستجيبوا لوساوس الشيطان بأنكم لا تصلحون لتدبري وفهم آياتي، فيقينًا أن كل عاقل منكم يقدر على فهمي، والاهتداء بهداي، والتأثر بمواعظي، فلقد أودع الله في آياتي القدرة على التأثير على الحجارة إن خاطبتها، فكيف بقلوب خلقها ربي لتكون أوعية لمعرفته؟

قد يتأخر الإمداد من ربكم لحكمة منه سبحانه فلا تيأسوا، وأيقنوا بأنه قادم لا محالة طالما اشتد عزمكم وتاقت أنفسكم للدخول إلى مأدبتي، والتأييد بروحي، والاستشفاء بشفائي.

عاهدوني أن تتلوا آياتي بترسل وتؤدة.. حركوا بها قلوبكم، وترنموا بها في ليلكم، واجعلوا المعنى مقصودكم، ولا يكن همكم سرعة الانتهاء من وِردكم.

لا تستصغروا أنفسكم فلقد كرمكم مولاكم على سائر خلقه، وأسجد الملائكة لأبيكم... أنتم قادة هذا الكون الفسيح، وكل ما فيه مخلوق من أجلكم، مسخر لخدمتكم، فتقدموا إليه واجعلوني دليلكم، وافتحوا بي هذه الأرض، وتعرفوا على ما فيها من عوالم كثيرة طال انتظارها لكم لتكتشفوا مكنوناتها وما تحتويه من أسرار لأسماء الله وصفاته فتزداد من خلالها معرفتكم بربكم.

سارعوا إلى حملي فأمتكم أمة الإسلام ـ خير أمة أخرجت للناس ـ في حالة من الضياع والتفكك والتشرذم لم يسبق لها مثيل، فلقد طال سباتها واشتد مرضها ولا علاج لها إلا من خلالي.

إن المستضعفين من إخوانكم المسلمين في كل مكان ينتظرون الفرج، فاحملوا مصباحي، واجمعوا الناس حول نوري، وناولوا دوائي لكل شارد وغافل.

وأبشروا بالنصر فما أسرع تنزله على جيل القرآن...

سيعود لكم مجدكم الزائل، ودياركم المسلوبة.. ستعود القدس، ويافا، وحيفا، وعكا.. ستعود كشمير، والبلقان، والأندلس، وسترتفع راية التوحيد على روما، وستعود أمتكم أمة واحدة.. دستورها واحد وغايتها واحدة، وخليفتها واحد.. العدل منهجه، وكتاب الله دليله، وما ذلك على ربكم بعزيز، واعلموا أن استمرار عزكم ومجدكم مرهون بتمسككم الصحيح بي، فلا تقعوا بعد ذلك فيما وقع فيه من سبقكم عندما تركوني وانشغلوا بغيري.

أنفذوا وصية نبيكم بالتمسك التام بي، واجعلوني وصيتكم لأبنائكم ولمن بعدكم تفوزوا بخيري الدنيا والآخرة».

وفي النهاية:

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يتقبل منا ما وفقنا إليه من خير في هذه الصفحات، وأن يتجاوز عما فيها من زلات، وأن يجعلنا جميعًا من أتباع القرآن، ومن جيل القرآن، ومن أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات..

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلِّ اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

  

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**